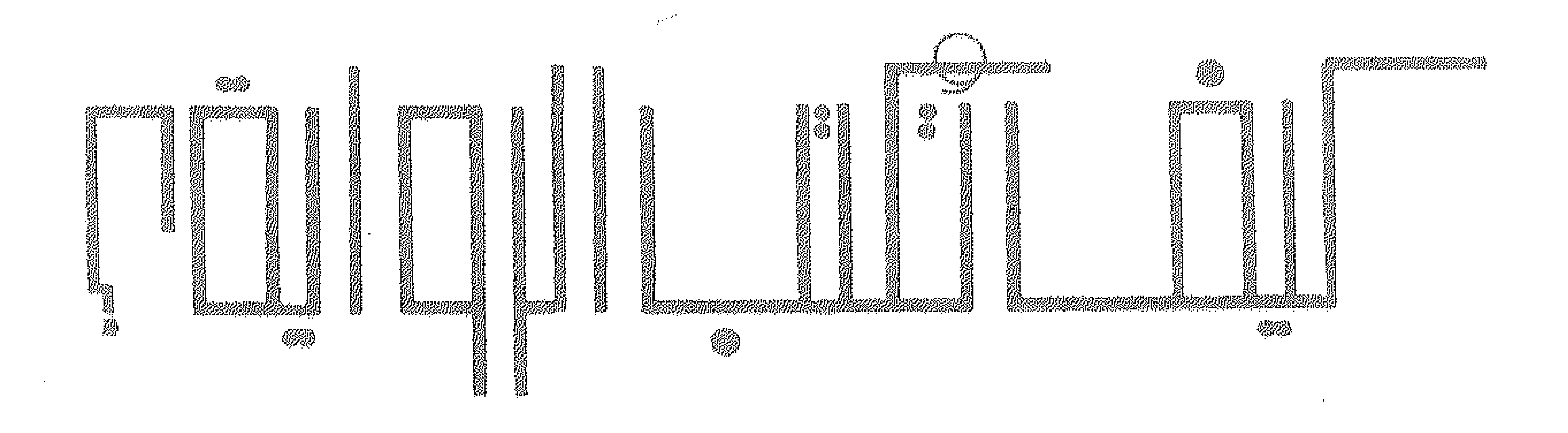
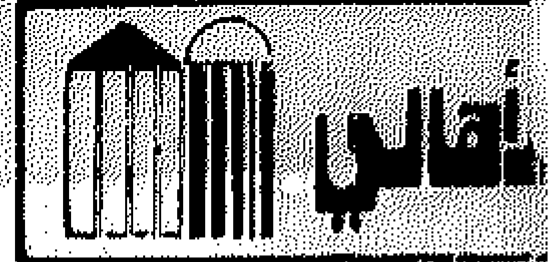
غابرييل غارسيا ماركيز



ترجمة

صالح علماني



كيف تُكتب الرواية؟

الطبعة الأولى ٣٠٠٠/ ٨/ ٨٨

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

غابرييل غارسيا ماركيز

كيف تُكتب الرواية؟
ومقالات أخرى

ترجمة
صالح علماني

حسناً، فلنتحدث في الأدب

في مقابلة صحفية قديمة، قال خورخي لويس بورخيس أن مشكلة الكتّاب الشباب في ذلك الحين كانت في أنهم يفكرون وهم يكتبون بالنجاح أو الفشل. في حين لم يكن يفكر في بداياته إلا بالكتابة لنفسه. ويروي قائلاً: «عندما نشرت كتابي الأول عام ١٩٣٢، طبعت منه ثلاثمئة نسخة وزعتها على أصدقائي، ما عدا مئة نسخة منها حملتها إلى مجلة «نوسوتروس» فنظر أحد مدراء المجلة، وهو الفريدو بيانتشي، إليّ مذعوراً وقال: «وهل تريدني أن أبيع كل هذه الكتب؟» فرد عليه بورخيس: «لا طبعاً. فرغم إني كتبتها، غير اني لست مجنوناً». والحقيقة ان الصحفي الذي أجرى المقابلة، الكيس خ. زيسمان، الذي كان في ذلك الحين طالباً من البير ويدرس في لندن، روى على هامش تلك المقابلة ان بورخيس قد اقترح على بيانتشي ان يدس نسخاً من الكتاب في جيوب المعاطف التي يعلقها المحررون على المشاجب في مكاتبهم، عسى أن يتيح ذلك نشر بعض الملاحظات النقدية حوله.

أثناء تفكيري بهذه الحادثة، تذكرت حادثة أخرى ربما تكون معروفة، وذلك حين التقت زوجة الكاتب الاميركي الشهير شيروود اندرسون مع الشاب وليم فوكنر وهو يكتب بقلم رصاص ويسند أوراقه على عربة قديمة. فسألته: «ماذا تكتب؟» فرد عليها دون أن يرفع رأسه: «رواية». ولم تستطع السيدة اندرسون إلا أن تهتف: «رباه!». ومع ذلك، فقد بعث شيروود اندرسون بعد

عدة أيـام إلى الشـاب فوكنر يقـول إنـه مستعـد لتقـديم روايته إلى ناشر، وشرطه الوحيد هو ألا يكون مضطراً لقراءتها. كان ذلك الكتاب هو Soldiers Pay ، الذي نُشـر عام ١٩٢٦ ـ أي بعـد ثلاث سنـوات من نشـر كتاب بورخيس الأول ـ وكان فوكنـر قد نشـر أربعـة كتب أخـرى قبل أن يصبح كاتباً معروفاً، يوافق الناشرون على طبـع كتبـه دون مزيـد من اللف والـدوران. ولقـد صرح فوكنـر ذاته يوماً انه بعد هذه الكتب الخمسـة الأولى، وجـد نفسـه مضطـراً لكتابة رواية إثارية، لأن الروايات السـابقـة لم تؤمن له من النقـود ما يكفي لإطعـام اسـرتـه. وقد كان هذا الكتاب الاضطراري هو «الحرم» Sanctuary ، والإشارة إلى الكتاب جديرة بالذكر، لأنها تُظهر بجلاء الفكرة التي كان يحملها فوكنر عن رواية الإثارة.

لقد تذكرت هذه الأحداث عن بدايات عظماء الكتّاب خلال حوار دام نحو أربـع ساعـات، أجـريتـه مع رون شيبرد، أحد المحررين الأدبيين في مجلة «تايم» والـذي يعد دراسة حول الأدب الاميركي اللاتيني. ثمة أمران اثنان جعلاني أشعر بالرضى عن هذه المقابلة. الأمر الأول هو أن شيبرد لم يحدثني ولم يجعلني أتحدث إلا عن الأدب. وأثبت دون أي أثـر للحـذلقـة أنـه يعـرف جيداً ما هو الأدب. والأمر الثـاني هو أنـه قـرأ بتمعـن شديـد جميع كتبي، ودرسها جيداً، ليس كل كتاب منها على حدة وحسب، وانـما كذلـك في تسلسلهـا وفي مجمـوعهـا. كما أنه تجشم عناء قراءة عدة مقـابـلات أجريت معي كي يتفادى توجيه الاسئلة التي توجه إليّ دائماً. ولم تثر هذه النقطة الأخيرة اهتمامي كثيراً، ليس لأنها تتملق غروري ـ وهو أمر لا يمكن، ولا يجب استبعاده على أي حال عند الحديث مع أي كاتب، بما في ذلك أولـئك الكتّـاب الـذين يبـدون متـواضعـين ـ وانما لأنها أتاحت لي أن أبينّ بشكل أفضـل، ومن خلال تجربتي، مفـاهيمي الشخصية عن مهنة الكتابة. فكل كاتب أثنـاء أي مقـابلة معـه ـ ومن خلال ادنى هفـوة ـ يدرك إن كان من يقـابله قد قرأ الكتـاب الـذي يحدثـه عنـه. ومنـذ هذه اللحظـة، وربما دون أن ينتبه الآخر إلى ذلـك، يضعـه الكاتب في منزلة معيبة وينظر إليه باستخفاف. واحتفظ أنا بذكرى

مرحة جداً عن صحفي اسباني شاب، أجرى معي حواراً مفصلاً عن حياتي وفي اعتقاده أنني مؤلف أغنية الفراشات الصفراء، التي كانت شائعة في ذلك الحين، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن أن تلك الموسيقى مستوحاة من كتاب، وانني أنا مؤلف ذلك الكتاب.

لم يوجه شيبرد إليّ أي سؤال شخصي، ولم يستخدم آلة تسجيل، وإنما كان يكتفي بين الحين والآخر بتسجيل بعض الملاحظات المقتضبة على دفتر مدرسي. ولم يبد اهتماماً بالجوائز التي مُنحت لي سابقاً أو الآن، ولم يحاول أن يعرف مني ما هو التزام الكاتب، ولا عدد النسخ التي بعتها من كتبي، ولا مبلغ الأموال التي جنيتها. لن أقدم الآن ملخصاً لحوارنا، لأن كل ما قلناه أثناء الحوار هو ملك له الآن وليس لي. لكنني لم أستطع مقاومة اغراء الاشارة إلى الحدث كواقعه مشجعة في مجرى حياتي الخاصة المضطربة اليوم، حيث لا أكاد أعمل شيئاً سوى الاجابة عدة مرات في اليوم على الأسئلة الدائمة ذاتها، والأسوأ أنها ذات الأسئلة التي تصبح علاقتها أقل يوماً بعد يوم بمهنتي ككاتب. أما شيبرد، فقد كان يتحرك، بالبساطة التي يتنفس بها، دون أن يصطدم بأشد أسرار الإبداع الأدبي زخماً. وعندما ودعني، تركني مضمخاً بالحنين إلى ذلك الزمان الذي كانت فيه الحياة أكثر بساطة، وكان المرء يستمتع بلذة اضاعة ساعات وساعات للحديث في الأدب وحسب.

ومع ذلك، لم يرسخ شيء مما قلناه في ذهني كرسوخ عبارة بورخيس: «الكتّاب يفكرون الآن بالفشل أو النجاح». ولقد قلت هذا الكلام بطريقة أو بأخرى لعدد كبير من الكتّاب الشباب الذين ألتقي بهم في هذا العالم. ولحسن الحظ اني لم أرهم جميعاً يسعون إلى انهاء رواية كيفما اتفق ليقدموها في الموعد المحدد لمسابقة ما. ورأيتهم يسقطون في مهاوي القنوط بسبب نقد مضاد أو لرفض مخطوطاتهم في دار نشر. لقد سمعت ماريو بارغاس يوسا يقول يوماً: «في اللحظة التي يجلس فيها أي كاتب ليكتب، فإنه يقرر إن كان سيصبح كاتباً جيداً أم كاتباً

رديئاً». ومع ذلك، فقد جاء إلى بيتي بمدينة مكسيكو بعد عدة سنوات من ذلك شاب في الثالثة والعشرين من العمر، كان قد نشر روايته الأولى قبل ستة شهور، وكان يشعر بالنصر في تلك الليلة لأنه سلم لتوه مخطوط روايته الثانية إلى ناشر. أبديت له حيرتي لتسرعه وهو ما يزال في بداية الطريق، فرد عليّ باستهتار لا زلت أرغب في تذكره على أنه استهتار لا ارادي: «أنت عليك أن تفكر كثيراً قبل أن تكتب لأن العالم بأسره ينتظر ما ستكتبه، أما أنا فأستطيع أن أكتب بسرعة، لأن قلة من الناس يقرؤونني». عندئذ، وبإيحاء مبهر، فهمت مغزى عبارة بارغاس يوسا: فذلك الشاب قرر سلفاً أن يكون كاتباً رديئاً، كما كان في الواقع، إلى أن حصل على وظيفة جيدة في مؤسسة لبيع السيارات المستعملة، ولم يعد بعدها إلى إضاعة وقته في الكتابة. ومع ذلك، أفكر الآن بأن مصيره ربما كان قد تبدل لو أنه تعلم الحديث في الأدب قبل أن يتعلم الكتابة. فهنالك هذه الأيام عبارة شائعة تقول: «نريد قليلاً من الأعمال وكثيراً من الأقوال». وهي عبارة مشحونة طبعاً بخيانة سياسية عظمى. ولكنها صالحة للأدب أيضاً.

لقد قلت منذ شهور عديدة لجومي غارسيا اكوست ان الشيء الوحيد الذي يفوق الموسيقى هو الحديث عن الموسيقى، وفي الليلة الماضية، كنت على وشك أن أقول الكلام ذاته عن الأدب. لكنني ترويت قليلاً، فالواقع أن الشيء الوحيد الذي يفوق الحديث في الأدب هو صناعة الأدب الجيد.

كيف تُكتب الرواية؟

هذا هو دون شك أحد الأسئلة التي كثيراً ما توجه إلى الروائي. ولدى المرء دوماً إجابة مرضية، تناسب من يوجه السؤ ال. لكن الأمر أبعد من ذلك: فمن المجدي محاولة الإجابة عنه، لا لمتعة التنويع وحسب، كما يقال، وإنما لأنه يمكن الوصول من خلاله إلى الحقيقة. ولأن هناك أمراً مؤكداً على ما أظن، وهو أن أكثر من يسألون أنفسهم كيف تُكتب الرواية، هم الروائيون بالذات. ونحن نقدم لأنفسنا أيضاً إجابة مختلفة في كل مرة.

وأنا أعني بالطبع الكتّاب الذين يؤمنون أن الأدب هو فن موجه لتحسين العالم. أما الآخرون، ممن يرون انه فن مكرس لتحسين حساباتهم المصرفية، فلديهم معادلات للكتابة ليست صائبة وحسب، بل ويمكن حلها بدقة متناهية وكأنها معادلات رياضية. والناشرون يعرفون ذلك. فقد كان أحدهم يتسلى منذ وقت قريب موضحاً لي سهولة الطريقة التي تكسب بها داره للنشر الجائزة الوطنية للآداب: لا بد قبل كل شيء من دراسة أعضاء لجنة التحكيم، من خلال تاريخهم الشخصي، وأعمالهم، وذوقهم الأدبي. ويرى الناشر ان محصلة جميع هذه العناصر توصله إلى حد وسطي لذوق لجنة التحكيم الأدبي. ويقول: «لهذا وُجدت الحاسبات الالكترونية». وبعد الوصول إلى نوع الكتاب الذي يتمتع بأكبر الاحتمالات للفوز بالجائزة، يتوجب التصرف بطريقة معاكسة لما يجري في الحياة: فبدلاً من البحث أين هو هذا الكتاب، يجري البحث عمن هو الكاتب،

سواء أكان جيداً أم رديئاً، المؤهل أكثر من سواه لفبركته. وما سوى ذلك ليس إلا التوقيع على عقد معه ليجلس ويكتب المواصفات المحددة، الكتاب الذي سيفوز في السنة التالية بالجائزة الوطنية للآداب. والمخيف في الأمر هو أن الناشر قد أخضع هذه اللعبة لمطحنة الحاسبات الالكترونية، وأعطته الحاسبات ان احتمال النجاح هو سبعة وثمانون بالمئة.

المسألة ليست إذن في كتابة رواية ـ أو قصة قصيرة ـ وإنما في كتابتها بجدية، حتى ولو لم تُبع فيما بعد ولم تنل أية جائزة. هذه هي الإجابة التي لا وجود لها، وإذا كان هناك من يملك الأسباب لمعرفة ذلك في هذه الأيام، فهو من يكتب الآن هذه السطور محاولاً من أعماقه إيجاد حله الخاص للأحجية. فقد عدت مؤخراً إلى مكتبي في مكسيكو، حيث تركت منذ سنة كاملة عدداً من القصص القصيرة غير المكتملة ورواية كنت قد بدأت بكتابتها وأحسست اني لم أجد طرف الخيط كي تكرّ اللفافة. بالنسبة للقصص القصيرة، لم أجد أية مشكلة: لقد صارت إلى سلة المهملات. فبعد قراءتها اثر سنة من الغياب الصحي، أتجرأ على أن أقسم ـ وربما كنت محقاً ـ بأنني لست كاتبها. إنها تشكل جزءاً من مشروع قديم يتألف من ستين قصة قصيرة أو أكثر تتناول حياة الاميركيين اللاتينيين في أوروبا، وكان عيب هذه القصص الأساسي والسبب في تمزيقها هو أني أنا نفسي لم أقتنع بها.

ليس لدي من التبجح ما يجعلني أقول أن يدي لم ترتعش حين مزقتها، ثم حين بعثرت القصاصات لأحول دون جمعها إلى بعضها بعضاً من جديد. لقد ارتعشت، ولم تكن يداي وحدهما هما اللتان ارتعشتا، لأني أحتفظ لعملية تمزيق الأوراق هذه بذكرى قد تكون مشجعة، لكنها تبدو لي مكربة. انها ذكرى ترجع إلى ليلة حزيرانية من عام ١٩٥٥، عشية سفري إلى اوروبا كموفد خاص من صحيفة الاسبيكتادور، حين جاء الشاعر خورخي غيتان دوران إلى غرفتي في بوغوتا ليطلب مني أن أترك له شيئاً ينشره في مجلة ميتو. كنت قد انتهيت من مراجعة أوراقي، فوضعت في مكان أمين ما رأيت أنه جدير بالحفظ، ومزقت ما هو ميؤوس

منه . بدأ غيتان دوران بالبحث في سلة المهملات عن الأوراق الممزقة ، بنهمه الذي لا يرتوي نحو الأدب ، وخصوصاً نحو امكانية اكتشاف قيم مغمورة . وفجأة وجد شيئاً لفت انتباهـه ، فقال لي : «لكن هذا صالح جداً للنشر» . فأوضحت له لماذا مزقته : إنه فصل كامل انتزعته من روايتي الأولى **عاصفة الأوراق** ـ وكانت الرواية قد نُشرت في ذلك الحين ـ ولا يمكن له أن يلقى مصيراً مشرفاً إلا في سلة المهملات . لم يتفق غيتان دوران مع وجهة نظري . ورأى ان النص قد يكون فائضاً عن الحاجة في مسار الرواية ، ولكن له قيمة مختلفة بذاته . فخولته ـ ليس لقناعتي بوجهة نظره بقدر ما كان ذلك لارضائه ـ صلاحية ترقيع الأوراق الممزقة بشريط لاصق ، ونشر الفصل على انه قصة قصيرة . «وأي عناوين نضع له؟» ، سألني مستخدماً صيغة جمع قلما كانت دقيقة كما هي في تلك الحالة . فقلت له : «لست أدري ، فهذا لم يكن سوى مونولوج لايزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو» ، وكتب غيتان دوران في الهامش العلوي للورقة الأولى ، وفي الوقت نفسه الذي كنت أقول فيه : «مونولوج ايزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو» . وهكذا استعيدت من القمامة احدى قصصي القصيرة التي قوبلت بأفضل اطراء من جانب النقد ، ومن جانب القراء على وجه الخصوص . ومع ذلك ، لم تفدني هذه التجربة في عدم مواصلة تمزيق أصول المخطوطات التي تبدو لي غير صالحة للنشر ، بل انها علمتني ضرورة تمزيقها بطريقة لا يمكن معها اعادة ترقيعها ثانية .

ان تمزيق القصص القصيرة أمر لا مناص منه ، لأن كتابتها أشبه بصب الاسمنت المسلح . أما كتابة الرواية فهي أشبه ببناء الآجر . وهذا يعني انه إذا لم تنجح القصة القصيرة من المحاولة الأولى فالأفضل عدم الاصرار على كتابتها . بينما الأمر في الرواية أسهل من ذلك : إذ من الممكن العودة للبدء فيها من جديد . وهذا ما حدث معي الآن . فلا الايقاع ، ولا الأسلوب ، ولا تصوير الشخصيات كانت مناسبة للرواية التي تركتها نصف مكتملة . وتفسير هذه الحالة هو واحد أيضاً : فحتى أنا نفسي لم اقتنع بها . وفي محاولة للبحث عن حلّ ، عدت إلى

قراءة كتابين اعتقدت انهما مفيدان. أولهما هو التربية العاطفية لفلوبير، ولم أكن قد قرأته منذ أرق الجامعة البعيد، فلم يفدني إلا في تفادي التشابهات التي كانت ستبدو مريبة، لكنه لم يحل لي المشكلة. أما الكتاب الآخر الذي عدت إلى قراءته فهو بيت الجميلات النائمات لياسوناري كاواباتا، الذي صفع روحي قبل ثلاث سنوات، وما زال كتاباً جميلاً. لكنه لم ينفعني هذه المرة في شيء، لأنني كنت أبحث عن أساليب التصرف الجنسي لدى المسنين، وما وجدته في الكتاب هو سلوك المسنين اليابانيين، الذي يبدو شاذاً مثل كل ما هو ياباني، وليست له أدنى علاقة دون ريب بالسلوك الجنسي لمسني منطقة الكاريبي. حين تحدثت عما يقلقني على المائدة، قال لي أحد ابنيَّ ـ وهو صاحب التوجه العملي ـ: «انتظر بضع سنوات اخرى وستتعرف على الأمر من خلال تجربتك الشخصية». ما الآخر، وهو فنان، فقد كان أكثر دقة وتحديداً: «عد إلى قراءة آلام فارتر»، قال لي ذلك دون أي أثر للسخرية في صوته. فحاولت قراءته فعلاً، ليس لأني أب مطيع جداً وحسب، وانما لأني فكرت كذلك بان رواية غوته الشهيرة قد تفيدني. لكنني لم أنته هذه المرة إلى البكاء في جنازة الشاب فارتر، كما جرى لي في المرة السابقة، وإنما لم أستطع تجاوز الرسالة الثامنة، وهي تلك التي يروي فيها الشاب المنكوب لصديقه غليرم كيف أنه بدأ يشعر بالسعادة في كوخه المتوحد. ووجدت نفسي ما أزال في مكاني، حتى انني لم أجد غرابة في اضطراري إلى عض لساني كي لا أسأل كل من ألتقي به: «قل لي يا أخي: «اللعنة، كيف يمكن كتابة رواية؟»».

طلب مساعدة:

لقد قرأت يوماً، أو شاهدت فلماً، أو أن أحداً روى لي حادثة واقعية ملخصها كما يلي: أدخل ضابط في البحرية عشيقته إلى قمرة سفينته الحربية خفية، وعاشا حباً صاخباً في تلك الحجرة الضيقة، دون أن يكشف أمرهما أحد

لعـدة سنـوات . فأرجـو ممن يعرف من هو مؤلف هذه القصة الجميلة ان يعرفني به بأســرع ما يمكن . فقـد سألت كثـير ين وكثير ين وكانوا جميعهم لا يعرفونه ، حتى بدأت أشك بأنها قد خطرت لي أنا بالذات في أحد الأيام ونسيتها . شكراً .

في تلك الأزمنة
أزمنة الكوكاكولا

لقـد أثبت الكـوبيون، بين الأشياء الكثيرة التي اثبتوها، أنه يمكن العيش دون «الكوكا ـ كولا» على بعد تسعين ميلاً من الولايات المتحدة. فالكوكا ـ كولا هي البضاعة الأولى التي نفدت بعد فرض الحصار الاقتصادي على كوبا، ولم يبق من ماضيهـا أي أثـر اليـوم في ذاكـرة الأجيـال الجـديـدة. وكـما في جميـع البلدان الـرأسـمالية، كان أشهـر المرطبات في العالم قد تحول في كوبا القديمة، المفسدة في سياحة بلا قلب، إلى عنصر جوهري من عناصر الحياة.

بدأت الكـوكـا ـ كولا بالدخول إلى كوبا في ظل دكتاتورية الجنرال خيراردو ماتشـادو الـوحشيـة، في العقـد الثاني من هذا القرن الذي ولد تحت برج التفاحة، حين لم تكن قد اخترعت بعد السدادات المعدنية التاجية، وكانت زجاجات المياه الغـازيـة تغلق بكـرة زجـاجيـة مضغـوطـة ومثبتـة بسلك، مثـل فلين زجـاجـات الشمبانيا. وكانت عملية ادخالها إلى البلاد شاقة جداً، وربما كان السبب في ذلك هو عائق ثقـافي: إذ ليس للكـوكـا ـ كولا طعم لاتيني. ومـع ذلـك، وشيئاً فشيئاً، تمكن الضغـط الـدعـائي المخـاتـل من احـداث شرخ استجـابـة في أشـد البؤر الاجتماعيـة تأثـراً بالـذوق السـائـد في الـولايـات المتحـدة، إلى أن أزاح مذاقها السكسـوني من السـوق الليمـونـادة المألـوفـة المصنـوعـة من ليمون حقيقي وجميع المـرطبـات الـوقـورة ذات السدادات الكروية الموروثة عن اسبانيا الريفية، كما أنها هزمت علكة Wrigley's المرنة كرمز لنمط غريب من الحياة.

ساد الاعتقـاد بان من يشـرب زجـاجـة «كـوكـا ـ كولا» في ساعة معينة كل صبـاح يتعـرض للإصـابـة بفتنةٍ أو ادمان شبيه بالادمان على السيجارة أو القهوة. وكـان يسـود اعتقـاد بأن ذلـك ناتج عن مركب سري الشـراب. وحسب بعض المتضلعين، فقد كانت «الكوكا ـ كولا» تحتوي على الكوكائين حتى عام ١٩٠٣، ونشأتهـا تفسـح المجـال للإيمان بصحة هذا الرأي. فقد اخترعت أول الأمر كدواء وليس كمرطب، وذلك في أواخر القرن الماضي، على يد دكتور يدعى بامبيرتون، وهــو صيـدلاني من ألابـامـا (جيـورجيـا)، كان يعبئهـا باسمهـا الشهـير لعـلاج التشنجـات المعـويـة والمغص الصباحي. ويحمل اسم الشراب وزمن انتاجه على الاعتقـاد بانـه كان يحضـر فعـلاً من أوراق نبـات الكـوكـا، الـذي يستخـرج منه الكـوكـائـين، إذ كان شائعـاً في ذلـك الـزمـان استخـدام أوراق البلادونا واكسير الباريغوريكو لتسكين الآلام الباطنية. وقد باع الدكتور بامبيرتون معادلة الشراب عام ١٩١٠ إلى شركـة المـرطبات التي ستغزو به العالم. ولأن الشراب يحتوي على مادة سريـة فقـط، نال مقابله مبلغاً خيالياً بالنسبة لذلك الزمان: خمسمئة دولاراً. ومـع ذلـك، فقـد اثبتت سلطـات البـير وعام ١٩٧٠ ان المـرطب لا يحتوي على ا كـوكـائـين، وكـان بوسـع هذه السلطات منع تداوله لو شاءت، لأن اسمه يحمل ا لجمهـور على الاعتقـاد ان الشراب يحتوي شيئا لا يحتويه في الواقع، وفي فرنسا، ـيث يتـوجب التنبيـه إلى كل بضـاعة تحتوي على مادة ذات استخدام حساس، يُطبـع على زجـاجـات «الكـوكـا ـ كولا» تحذيـر يقول إنها تحتوي على الكافيين. وتقـول الاسطورة إن شخصين في العالم كله فقط يعرفان المعادلة السرية للشراب، وانهما لا يسافران معاً في طائرة واحدة على الإطلاق.

أثناء مهرجان الشباب في موسكو، عام ١٩٥٧، كان أول ما فاجأ الزائرين الغـربيـين خلال أربعـة أيام مديدة من التجوال في أرجاء اوكرانيا هو رؤ يتنا لحظائر متوحدة تطل أبقارها من النوافذ، ولقرى وعرة تجوبها عربات محملة بالزهور ورجال غامضـين يخرجـون بالبيجـامـات لاستقبال القطار في المحطات، لكننا لم نر في أي

مكـان تحت سماء الصيف الملتهبـة اعـلانـاً واحداً للكوكا ـ كولا . وقـد لفت ذلك انتباه اذهاننا المشبعة بالدعاية الغربية . وبعد انقضاء عدة أيام من الإلفة ، تجرأت مترجمة متشـوقـة لمعـرفـة مفـاتن الـرأسمالية ، وسألتني ما هو مذاق الكوكا ـ كولا ، واجبتهـا بالحقيقـة التي أحسها : «لها مذاق الأحذية الجديدة» . في ذلك الحين كان هناك أطباء يصفونها كدواء للأطفال المصابين بالزحار ، وآخرون ينصحون بتناولها لترميم قوة القلب ، كما كان هناك من يؤكدون ، ومن خلال تجربتهم الشخصية ، ان تنـاولهـا مع الاسـبرين يمنحهـا مفعـول المخدرات . أما طبيب اسناني ، فكان يؤكد دون أن يطرف له رمش ، انه يمكن لسن مغمور في كأس من الكوكا ـ كولا أن يذوب تماماً خلال ٤٨ ساعة .

عند انتصار الثورة الكوبية ، كانت امكانيات توسيع سوق «الكوكا ـ كولا» في كوبـا محدودة جداً ، لأن موزعـيهـا كانـوا قد وصلوا بها إلى أبعـد من حدود امكـانيـاتهـا كمرطب ، وذلك باختراعهم «الكوبا ليبري» ـ وهي مزيج من الكوكا كولا والروم الكوبي ـ ولكن ، حتى في هذه الحالة ، فإن ٩٠٠ ألف كوبي فقط من أصل ستة ملايين كانوا في ظروف تسمح لهم بشرائها بشكل منتظم . وحين استولى العـمال الكـوبيـون على معـامـل التعبئـة في هافـانا ، لم يتمكنوا من مواصلة انتاج الكـوكـا ـ كولا ، لأن المـادة الأسـاسية كانت تأتي من الولايات المتحدة ، والكمية المخـزنـة منهـا في المصنـع كانت ضئيلة جداً . والشيء الوحيد الذي بقي مبعثراً في جميع أرجاء البلاد هو مليون زجاجة فارغة .

أبدى المتشددون معارضتهم لمحاولة تصنيع بديل لشراب يمثل رمزاً لكل ما كان الكـوبيـون يودون نسيانه . لكن تشي غيفارا ، بوضوحه السياسي المذهل ، رد عليهم بالقـول ان رمـز الامـبر يـاليـة ليس في الشـراب بحـد ذاته ، وانما في شكل الـزجـاجـة بالـذات . والحقيقة ، التي ربما لم يعرفها غيفارا على الإطلاق ، هي أن تصميم الـزجـاجـة لم يتم إلا في سنة ١٩١٥ ، أي بعد نحو عشرين سنة من ابتكار الدكتور بامبيرتون للشراب ، وحين لم يكن للكوكا ـ كولا من وجود إلا في الولايات

المتحدة. ولكنهم منذ ذلك الحين بدأوا يتجرؤون على إرسالها وحيدة لتجوب العالم.

وكان تشي غيفارا بالذات هو الذي قرر، كوزير للصناعة، بدء المحاولة لتصنيع بديل يستخدم في «الكوباليبري». كانت أكثر العقول جموداً قد فكرت باتلاف الزجاجات الفارغة الموجودة في البلاد للقضاء على أصل الداء. لكن عملية حسابية جديدة أثبتت أن معامل القوارير الكوبية ستحتاج لعدة سنوات كي تعوض تلك الزجاجات باخرى ذات شكل أقل خبثاً، وكان على أشد الثوريين تشدداً أن يستخدموا الزجاجات الملعونة إلى أن يتم انقراضها بشكل طبيعي. وكل ما هنالك انهم أصبحوا يعبئونها بكل أنواع المرطبات، ما عدا ذاك الذي ارتجلوه للإستخدام في «الكوبا ليبري». وحتى سنوات قريبة، كنا نحن الزائرين القادمين من بلدان رأسمالية نشعر بنوع من البلبلة الذهنية حين نتناول ليمونادة شفافة في زجاجة «كوكا ـ كولا».

وقد كان الكوبيون أنفسهم هم أول من وافق على أن تقليدهم «للكوكا ـ كولا» ليس أحد نجاحاتهم الكبرى. فقد راجت طرفة في الشارع، واكتسبت شعبية واسعة، حتى أن الكيميائيين أنفسهم كانوا يروونها، تقول إن كل زجاجة من شرابهم لها مذاق مختلف عن الأخرى، وهذا يجعل منه المرطب الأكثر أصالة في العالم. وحين قدموا العينة الأولى منه إلى تشي غيفارا، تذوقها، وتمعن بمذاقها بجدية ذواقة محترف، ثم قال دون أدنى تردد: «لها طعم البراز». وفيما بعد، أعلن عبر التلفزيون أن لها طعم الصراصير. لكن هذا الشراب الجديد شق طريقه رغم ذلك.

والمادة الجديدة، التي سميت مرطب الكولا، دون أي ادعاء آخر، انتهت للتوصل إلى لون يشبه إلى حد بعيد لون الشراب الأصلي، وإلى طعم لم يعد هو طعم البراز أو الصراصير، لكنه خالٍ دون ريب من الطعم السكسوني. فمذاقه أحلى قليلاً، وهو أقل جفافاً وبه نكهة غريبة من الشوكولاته، كما أنه شراب جيد

للتخلص من الظمأ والحر، وعند مزجه مع الروم الكوبي الأصيل يتوارى مظهره الدخيل إلى أقصى الحدود.

ومن جهة اخرى، أجهز سوء الاستعمال المتعمد على الزجاجات القديمة قبل الوقت المتوقع بكثير، وتلاشى الرمز من الذاكرة الاجتماعية ولم يصل إلى الأجيال الجديدة. وبعد خمس عشرة سنة من بدء الحصار الاقتصادي، وجد كاتب كوبي بالمصادفة، أثناء مروره العابر في باريس، زجاجة كوكا ـ كولا شاردة من المغرب، عليها كتابة بالحروف العربية المبهمة الشهيرة. وبدافع الفضول اشترى الكاتب الزجاجة ليحملها معه إلى هافانا، ولدى وصوله عرضها بابتهاج على ابنته ذات الخمسة عشر عاماً. نظرت الطفلة إلى الزجاجة بحيرة دون أن تفهم سبب مبالغة أبيها بالاعجاب. فقال لها: «انظري، تأمليها جيداً، انها زجاجة كوكا ـ كولا مكتوب عليها بالعربية». فسألته الصغيرة التي ما زالت في حيرة من الأمر: «وما هي الكوكا ـ كولا؟».

الريف
ذلك المكان الرهيب، حيث
الدجاجات تمشي نيئة

في استفتاء أجري مؤخراً لأطفال المدن الأوروبية الكبرى، سُئل هؤلاء الأطفال عن اسم الرجل الذي يوصل الرسائل إلى البيت، وعن اسم من يأتي بالحليب، وعمن يأتي بالجريدة والخبز، ومن يجمع القمامة، ومن يصلح الأعطال الصغرى في النور والماء. وكانت إجابة الأطفال على الأسئلة كلها شبه اجماعية: انه البواب.

ليس هناك ما يجعلهم يجيبون بشيء آخر. ففي هذه التجمعات المدينية الضخمة، حيث تكون ولادة زهرة شيئاً أشبه بمعجزة الخلق، لا بد لكل من يدخل إلى الشقق من المرور عبر الممر النظامي والاجباري، والصادر كذلك عن العناية الإلهية، أي البواب.

إن ما علمونا معرفته على أنه الطبيعة ونحن أطفال، وهو في الواقع كل ما كان يحيط بنا في القرية، قد انتهى به الأمر ليبدو وكأنه برنامج ساحر من برامج التلفزيون فليس مستهجناً إذن أن يجهل طفل يعيش في الطابق السادس عشر، ولا يخرج من البيت إلا للذهاب إلى المدرسة في حافلة، ويقضي اجازة الشتاء في منتجع ثلجي، والصيف على شاطىء معمور، أن يجهل وجود رجل كان يرتدي في زمن مضى زياً أزرق ويوصل الرسائل إلى أصحابها على دراجة، وأنه كان هناك رجل آخر ذو رداء أبيض لا يحمل الحليب إلى البيوت وحسب، بل انه كان دقيقاً كذلك في موعده حتى ليمكن الاستفادة منه كمنبه. وجميع هؤلاء كانوا

يؤلفـون في نهايـة الأمـر جزءاً من الأسـرة، فهم يدخلون إلى المطبخ لتناول القهوة وللحـديث في أسـرار الجـوار مع غيرهـم من عمال الخـدمـة، إلى أن نسمع في أحد الأيـام من يقـول في ساعـة الغـداء، وبكـل بسـاطـة: «بيـترا حامـل من ساعي البـريـد». والـبراءة الـوحيدة التي كنا نبيحها لأنفسنا، نحن أطفال ذلك الزمان، هي الاعتقاد بان الابن الذي ستنجبه بيترا لا يمكن له أن يكون إلا ساعي بريد صغير.

لقـد تمكنت ريـاح الحضـارة في اسبـانيـا من القضـاء على واحـد من أبـرز شخصيات حياة هذه البلاد وأدبها، وأعني به الحارس الليلي. وما زال هناك بعض هؤلاء الشيـوخ المتقـاعدين الذين لا يخفى عليهم سر من أسرار شارعهم، لأنه لا يمكن حدوث شيء فيه دون أن يعلموا به. فالحارس الليلي كان مسؤولاً عن أمن قطـاعه وكان يحمل حزمة تضم مفاتيح جميع البيوت. فلا أحد ممن يرجعون متأخرين يحمـل مفتـاحـه، بل يطلبـون من الحـارس الليلي أن يفتح لهم الباب. وكان ذلك الحـارس في متنـاول اليد دوماً: يكفي أن تبحث عنه في الحانة التي على الناصية، حيث يقضي الليل عادة في تبادل الحديث مع حراس الحي الآخرين، أويكفي أن تصفق بكفيـك ليحضـر في الحـال. انني أتسـاءل ما الـذي سيفكر به أطفال المدن الاسبـانيـة الكبر ى اليوم إذا ما خطر لأحد أن يروي لهم كيف كان السيد الحارس الليلي الذي كان يفتح لنا الأبواب. لا ريب في انهم لن يصدقوا ذلك، كما أنهم لن يشعـروا في شيخـوختهم بالحنـين إلى مجلخ السكاكين والمقصات الذي كان يتردد على الحي في فترات منتظمة، مثل الكسوف، مخلفاً هواء الشارع عابقاً بأنغام مزماره.

بين جميع شخصيات طفولتنا هذه، والتي أصبحت أقل ظهوراً وأقل وضوحاً بالنسبـة لأطفـال اليـوم، كان الشخص الـوحيد الذي يعتبر نذير شؤم هو موصل البرقيات المسكين. وربما أسهم أولئك المراسلون أنفسهم في تكوين تلك الصورة المشؤومة لطريقتهم المتسرعة في طرق الأبواب، ولاطلاقهم صفيراً كان يبدو دوماً

وكأنه صفارة طوارىء. ثم صراخهم: «برقية!». فقبل ذلك بكثير، وحين كانت الـدنيـا كلها ملكاً لنا، كانت مهمة الإنذار تلك محجوزة للمنجمين. لكن موظفي التلغراف، ومنذ اختراعه، أصبحوا هم نذر الموت. فقبل أن يتمكن أحد من فتح البـاب لهم، كان لا بد من مسـاعـدة الجـدة التي انهـارت مغمى عليهـا، ثم أن الكـلاب كانت تنطلق بالنبـاح في الفنـاء عنـد وصولهم، وكانت الدجاجات تعتلي عوارض القن لتنـام في وضـح النهار وقد تشوش احساسها بالوقت بسبب الكارثة. وكـان أحـدنـا يتفحص وجـه الـرسول وهو يستلم البرقية منه، فيبدو مستحيلاً ألا يكـون عارفـاً بنص برقيـة مصيبتنـا. ونشكـره بخيـط من صوتنـا، فيـما قلبنا يكاد ينخلع، آسفـين في أعـماق روحنـا لأنـه لم يعـد من وجـود لعـادة القـرون الوسطى القـاضيـة بشنق كل من يحمـل أخبـاراً مشؤ ومـة. ومع مرور الزمن، اختفى ذلك الخـوف من الـبرقيـات بسبب تأخر وصولها الذي صار مثاراً للسخرية. فقد أرسل أحـدهم حين عزم على السفـر الـبرقيـة التـالية إلى حبيبته: «عندما تصلك هذه البرقية سأكون بين ذراعيك».

حتى طبيب الأسـرة، الـذي كان مجرد حضـوره في البيت كافيـاً لخفض الحرارة، استُبدل في المدن بألوهية مجهولة لا يعرفنا قلبها. فقد روى لي أحدهم قبل وقت قريب عن مريض في حالـة خطـيرة طلب منـه الاختصـاصيـون في مختلف الاختصـاصـات ستـة تحاليـل متنوعة. وقد مات المريض في تلك الليلة بالذات، وبعد مرور أربع وعشرون ساعة، حين كان قد دُفن، كشفت التحاليل عن أنه في حالـة صحيـة جيـدة. ان هذه الأحـداث الـرهيبـة التي انتجتهـا الحضارة وتُروى للأسف كدعـابـات قاسيـة، لا يمكن فهمها إلا في عالم يسأل فيه الأطفال آباءهم إذا ما كانت الأبقار تضع بيوضاً، وإذا كانت المعكرونة تنمو على الأشجار.

لم يتـوصـل التلفـزيـون إلى ايجـاد حلّ لهذه الشكـوك، ولهذا تجبر المدارس الفـرنسيـة تلاميـذهـا على إتباع دورة خاصة الغرض منها حمل الأطفال للعيش في الـريف مدة شهـر، في الهـواء الطلق وبعينـين مفتـوحتـين، بحيث يتعـرفون على

النصف الآخر من العالم الذي لا يتيح لهم النصف المتحضر رؤيته. ويخيل إليّ انه سيخطر لهم ما خطر لنا نحن الأطفال الريفيين حين أخذونا إلى المدينة لأول مرة. أتصور انهم سيتأملون دجاجة تضع بيضة بالرهبة المهيبة نفسها التي تعرفنا بها على السينما؛ وسيرون كلبين ملتحمين في الطريق بالانفعال نفسه الذي كنا نرى فيه رجال الاطفاء وهم يعملون في اخماد حريق؛ وسيرون مرور الحمير الحقيقية التي من لحم وعظم، وسيسمعونها تنهق نهيقاً حقيقياً، وسينزعون شعراً من مؤخرتها بوهم المغامرة نفسه الذي كنا نرى فيه هبوط أول الطائرات.

صديقي اليخاندرو سانتسو روبينو، الذي أتقدمه بنحو ٤٢ سنة في الحياة، والذي أنهى دورته للتعرف على الطبيعة في شرق فرنسا، روى لي تجربته بالانبهار نفسه الذي كان يروي به الملاحون القدماء أخبار رحلاتهم. لكن قصته، على بعد عشرة آلاف كيلومتر عن وطننا المشترك، جعلتني أعي كم نحن بعيدون عن هذا الوطن في الزمان أيضاً. فقد أخذوا فريق اليخاندرو فعلاً ليروه كيف يتم قطع شجرة، لكن الحطاب لم يكن من اولئك الذين كانوا يقضون يوماً كاملاً وهم ينقرون الجذع بالفأس مثل العصفور نقار الخشب، وانما كان يقطع الشجرة بحسابات علمية دقيقة، مستخدماً في عمله منشاراً كهربائياً. ورأى كيف تُحلب البقرة، ولكن ليس بواسطة اليد وحدها، كما رأيته أنا في لوس سييتي كوليناس دي كولوريس، ببوياكا، وانما بواسطة جهاز حلب كهربائي تحمل أنابيبه العاقرة الحليب إلى حجرات البسترة مباشرة. هذا يعني انه يكاد يكون مستحيلاً العثور في البلدان المصنعة على مكان يستطيع الأطفال فيه تكوين صورة واقعية عن همجية التخلف الجميلة والمحزنة. أما ابناي فانهما يتذكران كلحظة فريدة في حياتيهما مساء اليوم الذي رأيا فيه ضفدعاً حياً وحقيقياً لأول مرة، في القرية الكاريبية حيث ذهبا لزيارة جديهما. وقد انفعلا كثيراً لدرجة أنهما حملا علبة طلاء وفرشاة كانت في متناول اليد، وطليا باللون الأصفر جميع الضفادع التي وجداها في القرية.

بيجي، أعطني قبلة

طلع الصباح على اعلان ضخم مكتوب على جدار أبيض طويل، مقابل بيتي في مكسيكو، يقول: **بيجي، أعطني قبلة**. كان الاعلان مكتوباً ببخاخ حبره لا يُمحى، من ذلك النوع من الطلاء المستخدم في حرب الجدران السياسية، ويبدو فيه ذلك النبض المتفاوت في كثافة الطلاء وقلته كما في الاعلانات السرية التي تُكتب في هدأة الفجر بأنفاس مكتومة، فيما الشركاء يحرسون زوايا الشارع لاعطاء الانذار المناسب. لكن الاعلان كان في مكان بعيد عن المنطقة العمرانية التي تدور فيها عادة تلك الحروب الشبحية، بل وحيث لا يكاد يصل الانفراج الاخلاقي للمدينة الجامعية القريبة. إلا أنه كان كبيراً بما يكفي لكي تراه بيجي وهي مارة دون شك، مهما كانت ساهية أو غير مبالية، وكان كئيباً بما يكفي لملامسة شغاف قلبها الحجري.

حين اكتشفت الاعلان، كنت قد انتهيت لتوي من قراءة الصحف التي تشبه قراءتها في هذه الأيام تناول زجاجة كاملة من زيت الخروع على الريق. فقد حاولت، كعادتي عندما استيقظ كل صباح، أن أكوّن رؤية بانورامية للعالم من خلال الصحافة، ووجدت أن ثمة ذكرى مريرة من كل شيء، في كل مكان، وليس في نفسي فقط، كما كان شأن خوان تينوريو في أزمنة اخرى أقل اضطراباً. لهذا أحسست بنفحة عزاء حين اكتشفت انه ما يزال هناك أحد قريب جداً من بيتي، لا مشكلة له في هذا العالم سوى أن تمنحه بيجي قبلة.

لقد نشرت صحيفة اسبريسو الايطالية منذ عهد قريب، مقالاً حول فرضية

أن موضـة الجنس آخـذة بالاختفـاء، وأن الحب على الطـريقـة القديمة يعود للإنتشار بكـبر يـاثـه. وكشفت الصحيفـة عن نتائج استفتاءات قالت بمقتضاها إن أعداداً متـزايـدة من الـرجـال والنساء آخذة بالإقلال من ممارسة العمل الجنسي، بل وان هنـــاك أزواجـاً ما زالـــوا سعـــداء رغم توقفهم عن ممارستـه نهائيـاً. وعـزت هذا الانصراف عن جنون الجنس إلى سنوات الستينات التي استنفدت فيها الإنسانية على ما يبـدو كل احتيـاطيهـا الشهـواني. وهنـالـك احصـائـيات لاثبـات ذلك. فثلاثون بالمئة من الفتيات، وخمسة وخمسون من الفتيان مارسوا تجارب جنسية قبل بلوغهم سن الخامسة عشرة في منتصف الستينات، بينما اعترف بممارسته في نهاية العقـد أربـع بالمئـة من الفتيـات وثـلاثـة عشر بالمئة من الفتيان ممن هـم في الخامسة عشرة من عمرهم.

لا أظن رغم ذلـك أن تلك الاحصـائيات هي دليل لاثبات اننا متعبون من الجنس، وانما لاثبات اننا نمنحه في حياتنا النسبة التي يستحقها بعدل، واننا نعيد إلى الحب عناصر كنا قد سلبناه إياها. لقد شهدت على امتداد حياتي عملية تحرر جنسي في بلدين كان الأمر فيهما يبدو بعيد الاحتمال: كولومبيا واسبانيا.

ففي هذا البلد الأخير، الذي كان عبارة عن بيت برناردا ألبا فسيح، يمتد من الكانتبر ي وحتى البحر المتوسط، بدأت تظهر الضغوط الاجتماعية الرهيبة ضد أحـزمـة العفـة قبـل موت الجنرال فرانكو بزمن طويل. قبل نحو خمس عشرة سنة، حين كانت الحـاجـة أقوى من الأخلاق وفُتحت الأبواب للسياحة الأوروبية، كان رجـال الحـرس الأهـلي يلاحقـون على الشـواطىء الحوريات الهاربات من ثلوج الشمال واللواتي لا يكـدن يرتـدين سوى خطوط من مايوه بيكيني. وكانت أمهات الأسـر الفـاضـلات يقلن مستنكرات حين يرينهن من نوافذ بيوتهن: «فاجرات». وفي الفنادق، حتى في أحدثها وأغلاها، كانت زيارة الغرف محظورة، وكان التشدد أكبر إذا ما كان الزائر من الجنس ذاته. وكانت العلامة الأولى التي لمحت فيها أن هناك شيئاً آخذاً بالتبدل في مجتمع القرون الوسطى ذاك هي اغلاق فندق العابرين

الشهير في المدينة لعدم وجود الزبائن، وأعني به فندق بيدرالبيس الذي كان قصراً غابراً، فيه حجرة صينية حيث كل ما فيها يجعلها تبدو كما لو كانت في الصين، وحجرة فارسية كل ما فيها يجعلها تبدو كما لو كانت في بلاد فارس. وكانت فيه ستائر من المخمل كما هي ستائر جميع مواخير العالم، ومرايا تُظهر كامل القامة على السقوف، ربما لكي يشعر الزبائن بأنهم يمنحونهم هناك مقابل النقود ذاتها التي يدفعونها، اللذة ذاتها مكررة عدة مرات. ولم تكن لابنيَّ اللذين كانت مدرستهما الابتدائية مجاورة لتلك الجنة السرية، من تسلية في الاستراحة بين الدروس، أفضل من تسلق الجدار الفاصل ورصد ما يحدث في الجانب الآخر. والحقيقة أن أمتع ما كان يحدث هو أن الجراسين الخدومين كانوا يهرعون لتغطية لوحات السيارات الداخلة، كي لا يستطيع الزبائن الآخرون معرفة صاحبها، في وهم لا جدوى منه لإخفاء الأسرار في مدينة صغيرة محبة لتداول الاشاعات، حيث تنتشر أنباء الأحداث قبل وقوعها.

كل ذلك يذكرني ببوغوتا الأربعينات، حين جئتها لأول مرة من الساحل الكاريبي، بثلاث عشرة سنة من العمر وبعذرية مفقودة، كما هي العادة الطيبة في موطني. كانت أمي، مثل سواها من الأمهات، تحرسني من الخطرين الكبيرين اللذين كانا يتربصان بنا في تلك الحقبة: النزلة الرئوية والزواج الاجباري. والحقيقة اننا، نحن الكاريبيين (وليس الكاريبينيون، كما يقال الآن، ولا أدري لماذا يقولونه هكذا) المعتادين على التعري في أي مكان حيث الحرارة في الظل تصل إلى ثلاثين درجة مئوية، كنا نعيش تحت رحمة رياح الانديز المتقاطعة، وكان كثيرون منا يموتون بالنزلة الرئوية بطريقة صاعقة وحزينة تشبه غرق السياح البوغوتيين في البحر. لهذا كانوا ينصحوننا دوماً بالتعري وراء أبواب موصدة، وتغطية أفواهنا بمنديل عند الخروج من السينما، مثلما هو شائع في بوغوتا حتى الآن، ولست أدري ما هو الأساس العلمي لذلك.

وكان الخطر الآخر هو الزواج بالإكراه. فالواقع أننا كنا معتادين على الدب

منـذ طفـولتنـا في بيـوت الآخـرين، أو معتـادين على أن تدب الخالات في بيوتنا، وبقينـا نحن أبنـاء السـاحـل في بوغـوتا، على اعتقادنا بانه يمكن عمل ذلك دون عقاب، إلى أن نجد أنفسنا في معظم الأحيان في وضع مربك هو الحَبَل.

كان ذلـك الخيـار هو أقـل الخيـارات رعبـاً كذلك. فقد كنا نعيش في عصر تفشي الأمـراض التنـاسليـة، وكـانت هناك اعلانات في الحافلات وفي المراحيض العـامـة، وفي كل مكـان تذكـرنـا بذلك: «إذا كنا لا نخاف من الله، فلنخف من السفلس». فكـانت الـوسيلة الـوحيـدة للخلاص من العزلة هي حفلات السبت الراقصة، مقابل دفع بيزوين اثنين، وفيها كنا نرى بعمق الجانب الوحيد المباح من الحب: رقصـة البـولـيرو، ثم المـواعيـد في اليوم التالي لدى الخروج من الصلاة، والرسائل المعطرة، وصالات السينما الاضطرارية، والدموع على الوسائد الخالية، والشِعر.

كل هذا ذهب في الستينات، كنسته رياح الجنس المحض. ولم يبد لي ذلك سيئاً، وانما على العكس. ولكن من الأفضل أن يكون الجنس جنباً إلى جنب مع جميع الأشياء الأخرى، ليشكل الحب المتكامل. وهذا هو دون ريب ما يأتي الآن، استنـاداً إلى اعـلانـات القلب. فروايـات الحب عادت لتحتل مكان الصدارة في المبيعات. وعاد المحبون إلى تبادل القبلات في الشوارع. ومنذ بضعة أيام، طلب ابني ذو الثـمانيـة عشـر عاماً من أمـه أن تعلمه رقص البوليرو، لأن موضة البوليرو أخـذت تعـود، رقصـاً وغنـاء، وهم يفتحـون في اميركا اللاتينية واسبانيا صالات رقص معتمة لاحياء تلك الرقصة من جديد.

لقد كنت مؤمناً على الدوام بأن الحب قادر على انقاذ الجنس البشري من الدمار، وهذه العلائم التي تبدو ارتداداً إلى الوراء هي على العكس من ذلك تماماً في الحقيقة: انها أنوار أمل. ولذا فإنني اتمنى بكل لهفة أن تقرأ بيجي الإعلان الذي كتبه لها أحدهم مقابل بيتي.

وأرجوك يا بيجي، إعطه قبلة.

أنا الآخر

منـذ بضعـة أيـام، وعند استيقاظي في سريري بمكسيكو، قرأت في احدى الصحف انني قد ألقيت محاضـرة أدبيـة في اليـوم الفـائت في مدينـة بالمـادي غران كانـاريـا (بجـزر الكنـاري، على الجـانب الآخـر من المحيط. ولم يكتفِ المراسل الصحفي الـدقيق بايـراد روايـة مفصلة للحدث، بل أنه قدم كذلك موجزاً موحياً لمحـاضـرتي. لكن أكثـر ما فتنني هو أن المـوضـوعات المطروحة كانت أكثر ذكاء مما يمكن أن يخطر لي، والطريقة التي عُرضت بها كانت أكثر جاذبية مما أستطيعه. ولم يكن فيها سوى عيب واحد وحيد: فأنا لم أكن في مدينة بالما، لا في اليوم الفائت ولا خلال السنـوات الاثنتـين والعشـرين المـاضيـة. كما أنني لم ألق في حيـاتي محاضرة واحدة حول أي موضوع في أي مكان من العالم.

كثيراً ما يجري الإعلان عن حضوري في أماكن لا أكون موجوداً فيها. رغم اني قلت في جميع الوسائط المتاحة اني لا أشارك في الاحتفالات العامة ولا ارتدي زي الاستـاذ الجـامعي ولا أظهـر في التلفـزيـون ولا أشـارك في الـدعاية لبيع كتبي ولا أساهم في أية مبادرة يمكن لها أن تحولني إلى استعراض. واحجامي عن ذلك ليس تواضعـاً، وانـما لسبب أسـوأ: انه الخجل. وهذا لا يكلفني أية مشقة، لأن أهم ما تعلمت عمله بعـد أربعـين سنـة هو أن أقول لا، حين يجب عليّ أن أقول لا، ومع ذلـك، لا يُعـدم وجـود محب للإثارة، يعلن في الصحافة أو في الدعوات الخاصة، باني سأكون في الساعة الرابعة من مساء يوم الأربعاء القادم في حفل ما لا علم لي

به. وفي الساعة الموعودة، يعتذر محب الإثارة عن نكث الكاتب الذي وعد بالحضور ولم يأت، ويضيف بضع قطرات من السم على أبناء عاملي التلغراف الذين تصيبهم الشهرة بالغرور، وينتهي إلى الفوز بتعاطف الجمهور ليفعل ما يشاء. في بدء حياة الفنان التي أعيشها، كانت هذه الخدعة الخبيثة تسبب لي تآكلاً في الكبد. لكنني وجدت شيئاً من العزاء وأنا أقرأ مذكرات غراهام غرين الذي يشكو من الأمر ذاته في الفصل الأخير الممتع من مذكراته. فقد جعلني أدرك أنه لا علاج للمسألة، وانها ليست خطيئة أحد، لأن هناك أنا آخر يمضي طليقاً في الدنيا، دون أي نوع من الرقابة، ويُقدم على عمل كل ما يتوجب على أحدنا عمله ولا يجرؤ عليه.

ولم تكن محاضرة مدينة بالما في جزر الكناري الملفقة هي الحدث الأكثر غرابة في هذا المنحى، وانما تلك الحادثة المشؤومة التي وقعت لي منذ سنوات مع شركة اير فرانس بمناسبة رسالة لم أكتبها أبداً. القضية هي أن شركة اير فرانس تلقت احتجاجاً رناناً وحانقاً، يحمل توقيعي، وفيه أشكو من سوء المعاملة التي كنت ضحية لها في الرحلة العادية التي تقوم بها الشركة بين مدريد وباريس، في يوم محدد. وبعد تحقيق صارم، أنزلت الشركة بالمضيفة العقوبات المتعلقة بالقضية، وبعثت ادارة العلاقات العامة إليّ رسالة اعتذار شديدة التهذيب والأسف، تركتني في حيرة من أمري، لأني لم أسافر في الواقع أبداً في تلك الرحلة. بل وأكثر من ذلك: انني أطير دوماً وأنا خائف، حتى انني لا أنتبه إلى كيفية معاملتهم لي، وأكرس كل طاقاتي لتثبيت مقعدي بيدي كي أساعد الطائرة على البقاء محلقة في الجو، أو أحاول منع الأطفال من الركض في الممرات خشية أن يثقبوا أرضية الطائرة. والحادث غير السار الوحيد الذي اذكره في الطائرات وقع أثناء رحلة مع نيويورك في طائرة مكتظة وخانقة، حتى أن التنفس فيها كان مضنياً. وخلال الرحلة، قدمت المضيفة وردة حمراء لكل مسافر. وكنت في حالة من الخوف جعلتني أفتح لها قلبي وأقول لها: «بدلاً من تقديم الوردة الينا، سيكون أفضل لو أنكم

تمنحوننا خمسة سنتمترات اخرى من الفراغ لنريح أرجلنا». فردت عليّ الصبية الجميلة، المنحدرة من سلالة الفاتحين النزقين قائلة بتمد: «إذا كان هذا لا يعجبك، فانزل». لم يخطر لي بالطبع كتابة أي رسالة احتجاج الى الشركة التي لا أريد أن أتذكر حتى اسمها، وانما رحت آكل الوردة، ورقة ورقة، ماضغاً دون تسرّع أريجها الطبي المضاد للقلق، إلى أن استعدت أنفاسي. وهكذا، فقد احسست بالخجل من شيء لم أفعله عندما تلقيت رسالة الشركة الفرنسية، فذهبت بنفسي إلى مكاتبها لتوضيح الأمور، وهناك عرضوا عليّ رسالة الاحتجاج. ولم يكن بامكاني انكارها، ليس لاسلوبها فقط، وانما كذلك لأن اكتشاف زيف التوقيع كان سيكلفني جهداً.

لا شك أن من كتب تلك الرسالة هو نفسه الذي ألقى المحاضرة في جزر الكناري، وهو الذي يفعل أموراً كثيرة لا أكاد أعلم بها إلا مصادفة. ففي معظم الأحيان، وحين أذهب إلى بيت أصدقاء لي، أبحث عن كتبي في مكتبتهم متظاهراً بالتسلي، وأكتب لهم اهداء عليها دون أن ينتبهوا إلى ذلك. لكنني وفي أكثر من مناسبتين، وجدت أن الكتب مهداة، بخطي ذاته، وبذات الحبر الأسود الذي أستخدمه دوماً، وبالأسلوب المتسرع ذاته، وبتوقيع لا ينقصه ليكون توقيعي إلا أن أكون أنا من كتبه. وقد قادتني المصادفة وحدها لأن أقرأ في صحف لا تخطر على بال، مقابلات معي لم أقدمها على الإطلاق، لكنني لا أستطيع انكارها لأنها تعبر بنزاهة، وسطراً سطراً، عن أفكاري. بل ان أفضل مقابلة معي نشرت حتى اليوم، وكانت تعبر خير تعبير وبأكثر الأساليب وضوحاً عن أشد منعطفات حياتي تعقيداً، ليس في مجال الأدب وحسب وإنما كذلك في السياسة، وفي ذوقي الشخصي، وفي أفراح قلبي وأتراحه، هي تلك المقابلة التي نُشرت منذ سنتين في صحيفة مغمورة تصدر في كاراكاس، وكانت مختلقة حتى النفس الأخير منها. لقد سببت لي فرحاً عظيماً، ليس لصوابها الدقيق فقط، وانما لأنها كانت موقعة كذلك بالاسم الكامل لامرأة لا أعرفها، ولكن لا شك في أنها تحبني كثيراً كي تعرفني إلى

هذا الحد، حتى ولو كان ذلك من خلال أنا الآخر فقط.

وقـد حـدث لـي الشيء ذاتـه مع أنـاس منـدفعـين وودودين ألتقي بهم في أرجاء العالم كله. ودائماً أجد أن هناك من كان معي في مكان لم أذهب اليه مطلقاً، ويحتفظ بذكرى لطيفة من ذلك اللقاء. أو انه صديق حميم لفرد لا أعرفه من أفراد أسرتي، لأن أنا الآخر فيها يبدو له أقرباء كثير ون مثلي، وان كانوا هم كذلك ليسوا الأقرباء الحقيقين، وانما صورة طبق الأصل لأقربائي. وكثيرا ما ألتقي بأحدهم في مكسيكـو، فيحـدثني عن الحفـلات البابلية الصاخبة التي اعتاد احياءها مع أخي هومبـيرتـو في اكـابـولكـو. والمرة الأخيرة التي التقيته فيها شكرني على الخدمة التي قدمتها اليه من خلال أخي، ولم أجد مفراً من القول له انه ليس هناك مايستوجب الشكـر يا رجـل. وهـذا أقـل ما يمكن عمله، لأن قلبي لم يطـاوعني أبـداً على الاعتراف له بأنه لم يكن لي في يوم من الأيام أخ يدعى هومبيرتو أو يعيش في اكابولكو.

منـذ نحـو ثلاث سنـوات، وكنت قد انتهيت من تنـاول الطعـام في بيتي بمكسيكـو، حين طُرق البـاب، وجـاء أحـد ابنيَّ ليقـول لي وهـو ينفجر ضاحكاً: «أبي، أنت جاء يبحث عنـك». قفـزت من المقعـد وأنـا أفكـر بانفعـال لا يمكن كبحـه: «هـاهـو ذا أخـيراً». لكنـه لم يكن أنـا الآخـر، وإنما المهندس المكسيكي الشـاب غابـرييل غارسيا ماركيز، رجل هادىء ومهذب، تحمل بصبر كارثة ادراج اسمـه في دليـل الهـاتف، وقد بلغت به الكياسة حد البحث عن عنواني ليحمل لي الـرسـائـل التي اجتمعت في مكتبه خلال ثلاث سنوات. وقبل زمن قصير، بحث أحـدهم أثنـاء مروره بمكسيكـو عن رقم هاتفنا في الدليل، وحين اتصل ردوا عليه باننـا ذهبنـا إلى المستشفى لأن السيـدة قد وضعت طفلة لتوها. وما الذي أتمناه أنا أكثـر من هذا! لكن ما جرى هو أن زوجـة المهنـدس تلقت باقـة ورد رائعـة، وهي تستحقها بجدارة، احتفاء بحدث الطفلة السعيد الذي حلمتُ به طوال حياتي ولم أحصل عليه أبداً.

لا . فالمهندس الشاب لم يكن أنا الآخر، وانما هو شخص محترم جداً : انه سميي . أما أنا الآخر، فلن يجدني أبداً ، لأنه لا يعرف أين أعيش، ولا كيف أنا ، ولا يمكنه أن يتصور اننا مختلفان إلى هذا الحد . سيواصل التمتع بوجوده الوهمي ، الباهر والغريب، في يخته الخاص ، وطائرته الخاصة ، وقصوره الامبراطورية حيث يحمم عشيقاته بالشمبانيا ويقضي على خصومه الرئيسيين بالضرب . سيواصل التغذي باسطورتي ، ثرياً إلى أقصى حدود الثراء ، شاباً ووسيماً إلى الأبد وسعيداً حتى الدمعة الأخيرة ، فيما أواصل أنا الهرم دون أسف أمام آلتي الكاتبة ، غير عابىء بهرائه وتعسفه ، باحثاً في كل ليلة عن أصدقاء حياتي لنرتشف معاً الكؤوس المعتادة ولنحن دون عزاء إلى رائحة الجوافة . وهذا هو أفدح المظالم : فالآخر هو الذي ينعم بالشهرة ، وأنا الذي يتخوزق بالحياة .

التخاطر اللاسلكي

في ليلة مضت، روى لي اخصائي أعصاب فرنسي، وباحث مثابر، انه اكتشف وظيفة من وظائف الدماغ البشري يبدو انها ذات أهمية بالغة. وكان يواجه مشكلة واحدة فقط: لم يستطع أن يحدد فائدتها. سألته، بأمل يقيني، إذا كان هناك احتمال ما بان تكون تلك الوظيفة هي تنظيم النبوءات، والأحلام الاستشرافية وتوارد الخواطر. فكان رده الوحيد ان نظر إليّ نظرة مشفقة.

لقد رأيت مثل تلك النظرة قبل ثمانية عشر عاماً، حين وجهت سؤ الاً مماثلاً إلى صديق عزيز، وهو باحث أيضاً في الدماغ البشري في جامعة مكسيكو. وكان رأيي، منذ ذلك الحين، أن التخاطر وأساليبه المختلفة ليس من شؤون المشعوذين، كما يظن الجاحدون، وانما هو ملكة عضوية بسيطة يرفضها العلم، لأنه لا يعرفها، مثلما رفض نظرية كروية الأرض حين كان يسود الاعتقاد بأنها مسطحة. وكان صديقي، إن لم تخنّي الذاكرة، يقر بأن جزءاً ضئيلاً من الدماغ البشري فقط هو الذي تم التأكد من وظائفه واثباتها بالكامل، لكنه يرفض الاقرار بوجود بقعة في بقية تلك الكتلة الهلامية مهمتها استشفاف المستقبل.

كنت أمازحه بمداعبات تخاطرية، فيفندها على أنها محض مصادفات، رغم ان بعضها كان يبدو شديد الوضوح. ففي احدى الليالي اتصلت به هاتفياً كي يأتي لتناول الطعام في بيتنا. وبعد المكالمة فقط انتبهت إلى أنه لا يوجد في المطبخ ما يكفي من الأشياء. فعاودت الاتصال به لأطلب منه أن يحضر لي معه

زجاجة نبيذ من ماركة لم تكن من الأنواع المتداولة، وقطعة سجق. وصاحت ميرسيدس من المطبخ طالبة أن أقول له ان يحضر كذلك صابوناً لجلي الأطباق. لكنه كان قد خرج من بيته. وفي اللحظة التي أعدت فيها وضع سماعة الهاتف، راودني احساس صافٍ بان صديقي، وباعجوبة يصعب تفسيرها، قد تلقى الرسالة. فكتبت ذلك على ورقة كي لا يشك في روايتي. ولمجرد اللمسة الشاعرية فقط، أضفت انه سيحمل معه وردة أيضاً. بعد ذلك بقليل وصل وزوجته ومعهما الأشياء التي طلبناها، بما في ذلك صابون من النوع ذاته الذي نستخدمه في بيتنا. قالا لنا وكأنهما يعتذران: «شاءت المصادفة أن يكون السوبرماركت مفتوحاً، فرأينا أن نحضر لكم هذه الأشياء». لم يكن ينقص سوى الوردة. وفي ذلك اليوم بدأنا، صديقي وأنا، حواراً مختلفاً لم ينته حتى الآن. والمرة الأخيرة التي التقيته فيها، منذ ستة شهور، كان يكرس جهوده لتحديد مكان توضع الوعي في الدماغ.

ان الحياة تتجمل بمثل هذه الأسرار أكثر مما قد يخطر ببال أحدنا. فعشية اغتيال يوليوس قيصر، رأت زوجته كالبورنيا وهي مذعورة أن جميع نوافذ البيت تُفتح معاً بعنف، دون أن تكون هناك ريح ودون أن يثير فتحها أية ضجة. بعد ذلك بعدة قرون، نسب الروائي ثورتون ويلدر إلى يوليوس قيصر عبارة لا وجود لها في مذكراته الحربية ولا في مدونات بلوتاركو وسويتونيو التأريخية الأخاذة، لكنها تحدد أفضل من كل ما عداها الشرط الانساني للإمبراطور: «أنا الذي أحكم كل هؤلاء الرجال، تحكمني عصافير ورعود». وتاريخ الانسانية ـ مذ كان الفتى يوسف يفسر الأحلام في مصر ـ مليء بمثل هذه الومضات الخرافية. أعرف توأمين متشابهين تماماً أحسا بألم في الضرس ذاته وفي الوقت ذاته وهما في مدينتين متباعدتين، وحين يكونان معاً يراودهما احساس بأن أفكار أحدهما تتداخل بأفكار الآخر. ومنذ سنوات طويلة، تعرفت في احدى بقاع ساحل الكاريبي على مداوٍ يفاخر بانه قادر على معالجة بهيمة عن بُعد إذا ما بينوا له أوصافها ومكان وجودها بدقة. وقد تأكدت من ذلك بعيني هاتين: رأيت بقرة متعفنة، والديدان تتساقط حية من

قروحهـا، فيـما المـداوي يتلودعاء سرياً على بعد عدة فراسخ منها. لكنني لا أذكر رغم ذلك سوى تجربة واحدة حُملتْ فيها هذه القدرات على محمل الجد في التاريخ المعـاصـر، وقـد قامت بتلك التجـربة قوات الولايات المتحدة البحرية التي لم تكن لديهـا وسـائـط للإتصال مع الغواصات الذرية المبحرة تحت طبقة الجليد القطبية، فقررت محاولة الاتصال عن طريق التخاطر. حاول شخصان، أحدهما في واشنطن والآخـر في الغـواصـة، التـوصـل إلى انسجـام بينهـما وإقامة نظام لتبادل الرسائل الـذهنيـة. وكـانت التجـربـة فاشلة بالطبـع، لأن التخـاطـر أمر عفوي لا يمكن ضبطـه، ولا يقبـل أي نوع من المنهجيـة. وتلك هي وسيلته الدفاعية. فكل ما هو تكهن، ابتداء من النبوءات الصباحية وحتى «دهور» نوستراداموس، يأتي مشفّراً منـذ ادراكـه، ولا سبيـل إلى فهمـه إلا حين يكتمل. ولو لم يكن كذلك لهزم نفسه بنفسه مقدماً.

إنني اتكلم في الأمـر بكـل هذه الخصـوصية لأن جدتي لأمي كانت العلاّمة الأكثر جلاء على الإطلاق بين جميع من عرفتهم في علم التكهن. كانت كاثوليكية من الجيـل الـذي مضى، أي انهـا ترفض كل محاولـة للتنبؤ بالمستقبـل عن طريق مهارات منهجية، سواء أكانت أوراق اللعب، أو خطوط راحة اليد، أو استحضار الأرواح. لكنهـا كانت استـاذة في تكهناتها. انني أذكرها وهي في مطبخ بيتنا الكبير في اراكاتا، تترصد العلامات السرية في أرغفة الخبز الشذية التي تُخرجها من الفرن.

في أحـد الأيـام رأت الـرقم (٠٩) مكتـوبـاً في بقايا الدقيق، فقلبت السماء والأرض إلى أن وجـدت بطـاقـة يانصيب تحمـل هذا الـرقم. خسـرتْ. إلا أنهـا ربحت في الأسبـوع التـالي غلاّيـة قهـوة تعمـل بالضغـط، ببطـاقة كان جدي قد اشتراها في الأسبوع السابق ونسيها في جيب سترته، وكان رقمها هو (٠٩). كان لجدي سبعـة عشـر ابنـاً ممن كانـوا يطلقـون عليهم في ذلـك الحـين تسميـة الأبناء الطبيعيـين ـ وكأن أبنـاء الـزواج النظـامي هم أبنـاء اصطناعيون، وكانت جدتي

تعتبرهم مثل أولادها. كانوا متفرقين على طول المنطقة الساحلية، لكنها كانت تتحدث عنهم جميعاً في ساعة تناول الفطور، وتشير إلى صحة كل واحد منهم وإلى وضع تجارته وأعماله وكأن لديها اتصالات مباشرة وسرية معهم. كان ذلك الزمن الرهيب هوزمن البرقيات التي تصل في وقت لا تخطر فيه على بال أحد وتدخل البيت مثل ريح رعب، تنتقل من يد إلى يد دون أن يجرؤ أحد على فتحها، حتى ترد إلى ذهن أحدهم الفكرة الملهمة بجعل طفل صغير يفتحها، وكأن للبراءة القدرة على تغيير لعنة الأخبار المشؤومة.

لقد حدث ذلك في بيتنا ذات يوم، وقرر البالغون المبهورون أن يتركوا البرقية مثل جمرة متقدة، دون فتحها، إلى أن يعود جدي. أما جدتي فلم تتأثر، وقالت: «إنها من بروديتشيا اغواران تخبرنا فيها بقدومها. لقد حلمتُ الليلة أنها آتية في الطريق إلينا». عندما رجع جدي إلى البيت لم يكن بحاجة حتى لفتح البرقية، فقد جاءت معه بروديتشيا اغواران التي وجدها مصادفة في محطة القطار، وكانت ترتدي فستاناً مزيناً بعصافير وتحمل باقة ضخمة من الأزهار، وكانت مقتنعة تماماً من أن جدي قد ذهب إلى المحطة استجابة لسحر برقيتها الأكيد.

ماتت الجدة عن نحو مئة سنة دون أن تكسب اليانصيب. أُصيبت بالعمى وصارت تهذي في أيامها الأخيرة حتى أصبح من المستحيل متابعة خيط عقلها. وكانت ترفض خلع ملابسها لتنام ما دام المذياع مفتوحاً، رغم اننا كنا نوضح لها كل ليلة ان المذيع غير موجود في الغرفة. كانت تظن اننا نخدعها، لأنها لم تستطع أن تصدق أبداً أنه يمكن لآلة شيطانية أن تُسمعنا صوت أحد يتكلم من مدينة اخرى نائية.

مصاعد الأربعاء

في فيلم حياة ارتشيبالدو دي لا كروز ـ للمخرج الخالد لويس بونويل ـ يقع حادث رهيب حين تدخل راهبة من باب مصعد، ولا يكون المصعد موجوداً في ذلك الطابق، فتهوي المرأة التعيسة إلى قاع الهوة وهي تطلق صرخة رعب. ومنذ زمن بعيد نشرت احدى الصحف خبراً عن ميكانيكيين متخصصين في اصلاح اعطال المصاعد كانا يحاولان اصلاح واحد منها ويعملان في قاع مسار المصعد، وفجأة هوى المصعد دون ان يوقفه عائق وهرسهما. وأعرف ابنة زوجين صديقين حُبست لمدة ساعتين في مصعد مظلم وهي في الثانية عشرة من عمرها، ولم تشف من الرعب منذ ذلك الحين، رغم كل العلاجات الطبية والسيكولوجية التي اخضعت لها. فالصغيرة ـ ولنقل الأمر بأقل مايمكن من الدراماتيكية ـ أصيبت بالجنون.

ومع ذلك، فإن أكثر القصص التي سمعتها عن المصاعد رعباً هي تلك التي حدثت في كاراكاس منذ سنوات طويلة. كانت هناك اسرة تعيش في بيت من ثلاثة طوابق مزود بمصعد، وذهب أفراد تلك الأسرة إلى أوربا لقضاء ثلاثة شهور. وقبل خروجهم فصلوا الكهرباء عن البيت من جهاز التحكم الذي عند المدخل كما يفعلون عادة.

كانت احدى الخادمات قد بقيت في الطابق العلوي لترتيبه، بعد أن اتفقت مع أصحاب البيت على انها ستنزل على الدرج حين تنتهي، وستقفل الباب

الخارجي بالمفتاح، وستتردد على البيت مرة كل اسبوع لتنظفه أثناء غيابهم. لكنها تذكرت كما يبدو أمراً مستعجلاً في اللحظة التي خرج فيها أصحاب البيت، وحاولت اللحاق بهم بسرعة في المصعد، ففاجأها انقطاع التيار الكهربائي وهي في منتصف الطريق، ولم يعلم أحد بذلك إلا بعد مرور ثلاثة شهور، حين رجعت الأسرة من أوروبا ووجدت البقايا المتفسخة في المصعد. لا استطيع إلا أن أفكر بهذه القصة وغيرها كثير من القصص المرعبة كلما اضطررت إلى دخول مصعد.
لقد كنت أشعر فيما مضى بكثير من الطمأنينة عند استخدام المصاعد الحديثة المزودة بهاتف لطلب النجدة في الفنادق الغالية والعمارات الفخمة. لكن ثقتي ما لبثت أن تبخرت في أحد الأيام حين رفع شخص كان معي في المصعد سماعة الهاتف ليُخبر عن توقف طارىء ولم يرد عليه أحد. التفسير الذي قدموه اليه يومها هو أن الشخص المكلف بالرد على ذلك الهاتف كان قد ذهب لتناول الغداء عند حدوث العطل، الذي كان ـ لحسن الحظ ـ طفيفاً. منذ ذلك الحين اعتدت أن أتقصى عمن يسمع صوت أجهزة الانذار ذات الأزرار الحمراء التي تحمل رسم جرسٍ أحمر اللون في جميع مصاعد العالم، وكان عليّ في معظم الحالات أن أرضى بعدم نفعها في شيء سوى منح الراكبين احساساً بالأمان لا أساس له في الواقع.

فالحقيقة هي أن معظم هذه الأجراس لا ترن في أي مكان، لأنها لا تعمل في الواقع إلا في مخيلة الراكبين الواهمين. لكن أحداً لا يعرف ذلك لأن أحداً لم يضطر إلى استخدامها خلال زمن طويل. لقد أخبرني ميكانيكي مصاعد في مكسيكو منذ زمن قريب انه لا بد اثناء خدمة الصيانة النظامية من فحص حالة أجراس الانذار، لكنهم لا يفعلون ذلك دوماً، لأن الميكانيكيين قد اعتادوا على المصاعد لدرجة انهم ما عادوا يهتمون بعدم عمل جهاز الانذار. ثم أن أجهزة الانذار ـ كما قال لي أحدهم ـ عديمة الجدوى في معظم الحالات، لأنها جميعها تعمل بالكهرباء، وقلما يحدث في المصاعد عطل ليس مرتبطاً بانقطاع التيار الكهربائي.

ولهذا فإن اجهزة الانذار تتوقف عن العمل للأسباب نفسها التي أوقفت المصعد عن العمل.

في العمارات السكنية، وحتى في اكثرها فخامة، يرن الجرس عادة في غرفة البواب الذي يملك مفتاحاً عادياً يفتح به باب المصعد في لحظة واحدة. والمشكلة هي ان البواب لا يتواجد أمام بابه على الدوام، حتى ولو كان اسمه يشير إلى ذلك. ويتمتع أكثر هؤلاء البوابون نشاطاً بامتيازات كثيرة ـ وهم يستحقونها ـ كالخروج للراحة مع اسرهم في نهاية الأسبوع. فمنذ أيام، وفي عمارة سكنية في برشلونة، اكتشفت بالصدفة أن البواب لا ينام في حجرته، وانما في بيت اسرته، هذا يعني انه إذا ما حُبس أحدهم في المصعد، فإن أفضل ما يمكنه عمله هو النوم على الأرضية حتى السابعة صباحاً، هذا إذا كان محظوظاً ـ أم عاثر الحظ؟ ـ بوجوده وحيداً في تلك المحنة، أو إذا لم تحدث النكبة في عز الشتاء، لأن الصباح لن يطلع عليه حينئذ إلا وهو متجمد.

في بناية سكنية في باريس، تساوي وزنها ذهباً، صارت جميع الخدمات فيها حديثة جداً إلى حد الاستغناء عن البوابة التي تعتبر واحدة من أقدم المؤسسات وأعرقها في المدينة. فبوابات باريس كن يتمتعن حقاً بشهرة واسعة في أزمنة مضت، حتى أن الأدب الفرنسي، وليس أدب بلزاك وحده، وانما روايات المجرمين والتحريين بشكل خاص، كان لا بد له من اللجوء اليهن كي تبدو أكثر القصص خيالاً وكأنها حقيقية. فيمكن لشهادة بوابة عن أحد سكانها أن تكون حاسمة أمام السلطة القضائية. لكن أعداداً متزايدة من بوابات باريس يستبدلن في كل يوم يمر باختراعات الكترونية غير آدمية، واكثر فعالية بكثير من اسلافها العجائز النزقات. لكن هذه الاختراعات تبقى عاجزة على أي حال عن اخراج ساكن بائس يُحبس في المصعد. وقد حُلّت مشكلة جهاز الانذار في العمارات التي لابوابة فيها، بوضع الجرس في شقة المسؤول عن العمارة، وهو منصب مؤقت ودوري، ومن يتولاه ليس ملزماً بالطبع بالبقاء في بيته منتظراً أن يتعطل المصعد

بأحدهم. والحقيقة الأخيرة هي ان عزلة المصعد من اكثر العزلات ترويعاً لأولئك الـذين يعـانـون من جنـون الحبس، ويعـرفون انهم قادرون على تحمل أي شيء باستثناء الحبس في المصعد ولو للحظة واحدة.

إن أجـدادنـا الـذين كانوا أكثر صرامة، كانوا في الوقت ذاته أكثر انسانية في فهمهم للحياة. وما كان ليخطر ببال أحد منهم اختراع مصعد مثل هذه المصاعد الشـائعـة في أيـامنـا، والتي يقـوم الأمان فيها على كل ما هو مناقض لما يريده المرء للإحسـاس بالأمـان. انها نعوش مصفحة. ففي نيويورك، حيث يوجد حقاً وعي عال لمخاطر المصاعد ويجري التعامل معها كوسائط للمجازفة، لا ينقصها إلا شيء وحيد هو وضع إعلان مضيء فيها، كما في الطائرات: «ثبت حزام الأمان». فحين يدخـل المـرء إلى مصاعد مانهاتن المزدحمة، يسمع عامل المصعد وهو يأمر الناس، وكأنـه جنـرال في معـركـة: «قفـوا مقـابـل الباب». وهذا يسهل دون ريب عملية الاخـلاء السـريعـة. لكن سبب هذه الاجـراءات كلها هو أن مصاعد هذه الأيام محكمـة السـد. أمـا في المـاضي، فقـد كان الاجداد يعون أن استخدام المصعد، ومهـما كان يوميـاً وروتينيـاً، هو رحلة على أية حال، ولا بد من القيام بها بأكبر قدر ممكن من المتعـة. فكـانـوا يصممونها كعمل فني، ليس في التقنية وحسـب، بل وفي النجـارة أيضـاً، فيفتحـون لها نوافـذ من جميع الجهات لا تفيد للتنفس فقط، وانما لرؤ يـة المشهـد الـداخـلي من البنـاء كذلك. فلا يصعد أحدهم وهو يحبس أنفاسه خشيـة انقطـاع التيـار الكهـربـائي، بل يصعد وهو يرى الحياة: العاشقين الذين ينتظـران عودة المصعـد في الطـابق الأول وهما يتبادلان القبلات؛ والعجوز المقعدة التي تتظاهر بانها تطرز أمام باب بيتها المفتوح في الطابق الثاني، بينما هي تستمتع في الحقيقـة بالحياة التي تصعـد وتنـزل في المصعـد؛ أو صخب الطفل الذي يقول لنا وداعاً ملوحاً بيده وهو يرانا نمر مروراً عابراً من الطابق الثالث. لقد انتهى كل هذا مع صناديق هذه الأيام الفولاذية، التي لم تبق لها سوى مزية واحدة ـ لأنه لا بد لها من مزيـة ما ـ ذلـك أنهـا في حالـة مستعجلة، وهـو ما يحدث بكثـرة تفوق ما يظنه

أحدنا، يمكن للعشاق أن يضغطوا زر المكبح ليمارسوا حباً على المواقف مثل حب ديك كئيب، بينما يكون هناك في الطوابق الوسطى، من يشتم ويلعن مصاعد الأربعاء[1] هذه التي تتعطل فجأة وفي أي مكان، دون اذن من أحد. ولحسن الحظ أن الأشياء التي لا تنفع في شيء قد تكون ذات فائدة كبيرة أحياناً.

---

١ ـ استخدام لفظة اربعاء Meircoles جاء هنا بديلاً للفظة Mierda . وهو استخدام شائع في معظم بلدان أميركا الجنوبية، لتهذيب كلمة ierda (خراء).

فلنكن رجالاً ، ولنتحدث عن الخوف من الطائرة

الخوف الوحيد الذي نعترف به نحن الأميركيين اللاتينيين دون خجل، بل وبشيء من الاعتزاز الرجولي، هو الخوف من الطائرة. ربما لأنه خوف مختلف، لم يكن موجوداً منذ نشأتنا، كما هو الخوف من العتمة أو الخوف من ظهور الخوف علينا. فالخوف من الطائرة هو أحدث أشكال الخوف، وجد منذ اختراع الطيران فقط، أي قبل نحو سبع وسبعين سنة. وأنا أعانيه ـ بكل فخر ـ كما لايعانيه أحد، وأشعر بامتنان كبير نحوه لأني استطعت بفضله أن أدور حول العالم في اثنتين وثمانين ساعة، على متن جميع أنواع الطائرات ولعشر مرات على الأقل.

وعلى النقيض من مخاوف اخرى متوارثة وخِلْقية، فإن الخوف من الطائرة يمكن تعلمه. انني أذكر بحنين رحلات الطيران الغنائية حين كنت في مرحلة الدراسة الثانوية، بتلك الطائرات ذات المحركين التي كانت تطير بين العصافير، مخيفة الأبقار، ومفزعة بريح مراوحها الأزاهير الصغيرة الصفراء في المراعي؛ والتي كانت تضيع أحياناً وإلى الأبد بين الغيوم، وتتحول إلى عجة، فيصبح لا بد من الخروج في منتصف الليل للبحث عن رمادها بأكثر الأساليب طبيعية ومنطقية: على متن بغلة.

في احدى المرات، وكنت كاتب تحقيقات في واحدة من صحف بوغوتا، في مرحلة لا واقعية كان عمر جميع الناس فيها عشرين سنة، أرسلوني لمتابعة خبر مشؤوم ومعي المصور غيلليرمو سانتشيث، في واحدة من تلك الطائرات البرمائية

من طراز كاتـالينـا التي بقيت بعـد الحـرب . كنا نطير فوق غابات اورابا ، جالسين على حزم المكانس ، لأنه لم يكن يوجد مقاعد في تلك النعوش الطائرة ، ولا مضيفة تبعث العـزاء ويمكن لأحـدنـا أن يطلب منهـا رقم هاتفها في الجنة . وفجأة دخلت الطائرة حيث ما كان عليها الدخول وتاهت وسط وابل توراتي . لم يكن المطر يهطل في الخـارج فقـط ، وانـما في داخل الطائرة ايضاً . جاءنا مساعد الطيار وهو يتمسك بجهـد جهيـد ، حاملاً لنا جريدة لنغطي بها رؤوسنا ، ولاحظنا ونحن مذهولين انه يكاد يكون عاجزاً عن الكلام ، وأن يديه ترتعشان .

في ذلك اليوم تعلمت شيئاً مشجعاً للغاية : فالطيارون يخافون أيضاً ، إلا أن خوفهم ، مثل مصارعي الثيران ، لا يبدو في ارتعاش أيديهم كما هو شأن الخوف من الخُرافـات . وقـد اكتشف ذلك صديق اسباني ـ يخاف الطائرة لدرجة أنه لا يسافر جالساً على الاطلاق ـ حين دعوه في ليلة نحس شتائية لمشاهدة عملية الإقلاع من حجرة القيادة . كان ذلـك في نيـويورك ، أثناء عاصفة ثلجية . وبقي أفراد الطاقم رابطي الجأش وهم في طائـرتهم عنـد بدايـة المـدرج ، إلى أن أصدروا إليهم الأمر بالإقـلاع . حينئـذ ، وكـما لو كان ذلـك واجباً فنياً لا بد منه ، رسموا جميعهـم إشارة الصليب معـاً في حركـة ايقـاعيـة متطـابقة . وصديقي الذي أدرك في أعماق روحه عندها ان الطيارين يخافون أيضاً ، تخلص وإلى الأبد من الخوف من الطائرة .

أما أنا فقد وقعت في تجربة اكثر ايحاء أثناء طيراني بين النجوم ، فوق المحيط الأطلسي . كنت أتحـدث مع قائـد الطـائـرة حول جميـع الأمـور ، وسألتـه خلال الحديث عن صديق آخر طيار ، كان زميلي في المدرسة ، وكنت أجهل بطبيعة الحال انـه قد تهشم وقضى نحبـه في مطـار تينـير يفي وهـو يحاول الهبـوط وسط عاصفة . فأخبرني قائد الطائرة بذلك بطريقة ـ اخرى ، لكنها أكثر كشفاً :

لقد تقاعـد عن الشركة منذ ثلاث سنوات ، في جزر الكناري .

ومـع ذلـك ، ليست هنـاك علاقـة بين الخـوف من الطـائـرة طيب الـذكـر والكوارث الجوية . وقد عبر بيكاسو عن ذلك بشكل جيد : «أنا لا أخاف الموت ،

لكنني أخـاف الطـائـرة». بل وأكثر من ذلك، فهناك كثيرون ممن يخافون الطائرة، تخلصـوا من هذا الخـوف بعـد نجـاتهم من كارثـة. أمـا أنا فأصبت بعدواه وكأنها التهـاب لا شفـاء منـه أثنـاء رحلة في منتصف الليـل من ميـامي إلى نيويورك، في واحدة من أولى الطائـرات النفـاثـة. كان الجـو على ما يرام والطـائـرة مستقرة في السماء، وإلى جانبها تلك النجمة المنفردة التي ترافق دوماً الطائرات الخيرة، وكنت أتأملها من النافذة بالحنان نفسه الذي كان سانت ـ اكسوبيري يرى فيه مواقد النار في الصحراء من طائرته الألمنيوم. وفجأة، في التأمل، وعيت استحالة بقاء الطائرة معلقة في الجو فيزيائياً، وأقسمت ألا أعود إلى الطيران أبداً.

وفيت بقسمي عشر سنوات، إلى أن علمتني الحياة ان الخائف الحقيقي من الطائرة ليس من يرفض الطيران، وانما من يتعلم الطيران بخوف. وهذا نوع من الفتنـة. الشخص الـوحيـد الـذي لا يطير بين جميع المشهورين الذين أعرفهم هو المعـماري الـبرازيـلي اوسكار نيمير. أما مواطنه جورج آمادوا، وهو من أشد هيابي الجـو، فقـد كانت لديـه الجسـارة الشاعزية للطيران في طائرة كونكورد من باريس وحتى نيويورك، ليستقل من هناك سفينة تنقله إلى ريو دي جانيرو. أما الكاتب الفنـزويـلي ميغيـل اوتـير وسيلفـا والمخـرج السينمائي البرازيلي روي غيرا، فقد وصـلا، وعـبر طريقين مختلفين إلى أن الوسيلة الوحيدة لمقارعة الخوف من الطائرة هي أن يطـير المـرء خائفـاً. أمـا كارلـوس فوينتس، الذي لم يطر خلال خمسة عشر عاماً، وكان يقوم برحلات ملحمية تدوم ثمانية أيام، يستبدل خلالها عدة قطارات لينتقـل من مكسيكـو إلى نيـويـورك، لم يعـد إلى الطيران وحسب، بل انه ذهب لالقاء محاضرة في جامعة انديانا على متن طائرة ذات محرك واحد. ولكن بين كبار الاختصـاصيـين بالخـوف من الطائرات لم يكن هناك من هو أفضل من دون لويس بونويل الذي بقي يطير بهدوء حتى بلوغه الثمانين، رغم انه كان يموت خوفاً أثناء ذلـك. فالـرعب الحقيقي بالنسبـة له يبـدأ حين يكون كل شيء في الرحلة الطائرة

على خير ما يرام، ويظهـر فجأة قائـد الطائرة بقميصه ذي الأكمام القصيرة ليذرع الطائرة بخطوات متمهلة، محيياً كل واحد من المسافرين بابتسامة مشعة.

أمي لم تطـر سوى مرتـين في حيـاتها الطويلة. ولم تشعر بالخوف أبداً، لكنها تعـرف جيـداً خوف أبنائها ـ وهم اثنا عشر ـ، فتحتفظ لذلك بشمعة مشتعلة دوماً فوق المذبح البيتي لتحمي بها من يكون في الجو منا. ان ايمانها راسخ لدرجة أن أحد أبنـائهـا ـ وهـو مهنـدس طرق ـ تدهور منه بلدوزر في هوة إلى جانب الطريق منذ وقت قريب، وسمعت أمي أثنـاء الحـديث أن الغـرامـة قد تصل إلى أكثر من مئة ألف بيـزو، فطلبت من أخي ألا ينفق قرشـاً واحداً، لأنها ستشعل شمعة لاخراج البلدوزر. فقال لها أخي مؤنباً: «لا يمكن أن يخطر لأحد سواك انه يمكن لشمعة أن تُخرج بلدوزراً من حفرة».

فردت عليه أمي بثقة:

ـ وكيف لا تُخرجه! إذا كانت تحمل الطائرات في الجو.

تدابير علاجية للطيران

مرة اخرى، قمت بالحماقة التي كنت قد عزمت على عدم تكرارها أبداً، وهي القفز فوق الأطلسي ليلاً ودون محطات توقف في الطريق. انها اثنتا عشرة ساعة بين معترضتين، لا تضيع خلالها الهوية وحدها، وانما المصير كذلك. وقد كانت الرحلة محكمة تماماً في هذه المرة لدرجة أن يقيناً راودني في احدى اللحظات بان الطائرة قد تتوقف فوق المحيط وان عليهم أن يأتوا بطائرة اخرى لنقلنا اليها. أعني انه كان ثمة خوف يعذبني على الدوام من أنّ الطائرة ستسقط، لكنني في هذه المرةّ أحسست بخوف جديد. الخوف من بقاء الطائرة معلقة في الجو إلى الأبد.

في تلك الظروف البغيضة أدركت السبب في كون الوجبة التي يقدمونها في الجوذات طبيعة مختلفة عن تلك التي نأكلها على اليابسة. ذلك أن الفروج أيضاً ـ وهو ميت ومشوي ـ يطير خائفاً، وفقاعات الشمبانيا تموت قبل موعدها، والسَلطة تذبل في كآبة مختلفة. ويحدث شيء مماثل بالنسبة للأفلام السينمائية. فقد رأيت أن مغزى بعض الأفلام يتبدل حين تُشاهد في الجو، لأن روح الممثلين تقاوم جاهدة لتكون هي ذاتها، لكن الحياة بمنطقها الخاص، تنتهي إلى عدم الاقناع. لذلك ليس ثمة احتمال في أن يكون أيُّ فيلم جيداً في الطائرة. بل أكثر من ذلك: فكلما كانت الأفلام طويلة ومملة، يكون المرء أكثر امتناناً، لأنه يجد نفسه مكرهاً على تخيل أكثر مما يراه وابتداع أكثر مما يستطيع رؤيته بكثير، وكل هذا يساعد في تجاوز الخوف.

وأمثال هذه التدابير لا تحصى. فلدي صديقة لا تجد إلى النوم سبيلاً قبل عدة أيام من سفرها، لكن خوفها يتلاشى تماماً حين تحبس نفسها في مرحاض الطائرة. فتبقى هناك ما يتاح لها من الساعات وهي تقرأ باطمئنان لا يمكن مقارنته إلا بحدقة الإعصار، إلى أن تجبرها سلطات الطائرة على العودة إلى رعب مقعدها. انه لأمر غريب، لأني كنت أظن دوماً أن نصف الخوف من الطائرة يأتي من ضيق النفس بالحبس، وهو احساس لا يمكن الشعور به في أي مكان بمثل قوة الشعور به في دورات المياه. أما في مراحيض القطارات، فثمة احساس بالحرية لا مثيل له. حين كنت طفلاً، كان أكثر ما يفتنني من الرحلات في قطارات الموز هو النظر إلى الدنيا من خلال فتحة مرحاض العربات، واحصاء عدد النائمين بين ضيعتين، ومباغتة الحراذين المرتعدة بين الأعشاب، والصبايا اللواتي يظهرن لهنيهة وهن يستحممن عاريات تحت الجسور. والمرة الأولى التي ركبت فيها طائرة ـ وكانت طائرة بدائية ذات محركين، من تلك التي تقطع ألف كيلومتراً في ثلاث ساعات ونصف ـ فكرت، ببراءة، انني سأرى من خلال فتحة المرحاض حياة اكثر ثراء من تلك التي تظهر في القطار، فسوف أرى ما يجري في فناء البيوت، وسأرى الأبقار التي تمشي بين شقائق النعمان، وفهد هيمنغواي متحجراً بين ثلوج كليمانجارو. لكن ما وجدته كان تأكيداً محزناً على أن تلك العين على الحياة هي عين عمياء، وأن عملاً بسيطاً مثل افلات دفقة الماء كان يتطلب مجازفة تصل إلى حد الموت.

لقد تجاوزت منذ سنوات طويلة الوهم الشائع في أن المشروبات الكحولية هي وسيلة ناجعة لعلاج الخوف من الطائرة. فبمقتضى معادلة للويس بونويل، كنت أشرب جرعة من المارتيني السك قبل الخروج من البيت، وجرعة اخرى في المطار وثالثة لحظة الإقلاع. فكانت اللحظات الأولى من الطيران تمضي بالطبع في حالة من النشوة يكون مفعولها معاكساً لما هو مطلوب. إذ تصبح الطمأنينة واقعية وشديدة لدرجة أن المرء يتمنى لو أن الطائرة تسقط ليعود إلى التفكير بالخوف

ثانية . وتقود التجربة أحدنا لأن يتعلم أن الكحول هو متواطىء في الرعب اكثر مما هو علاج للخوف . فليس هناك ما هو أسوأ منه في الرحلات الطويلة : فقد يستكين أحدنا مع الجرعتين الأولين ، ويسكر مع الجرعتين الأخريين وينام مع تاليتيهما ، مخدوعاً بوهم انه نائم في الواقع ، ويستيقظ بعد ثلاث ساعات واثقاً من انه لم ينم سوى ثلاث دقائق وانه لا وجود لشيء آخر في المستقبل سوى وجع رأس سيستمر لعشر ساعات .

أما المطالعة ـ العلاج النافع لشرور كثيرة على الأرض ـ فهي ليست كذلك في الجو بأي حال من الأحوال . إذ يمكن للمرء أن يبدأ بقراءة أفضل الروايات البوليسية حبكة ، وينتهي منها دون أن يعرف من قتل من ولا لماذا قتله . ولقد كنت على قناعة دوماً من أنه ليس هناك من هم أكثر خوفاً في الطائرات من أولئك السادة الذين يُظهرون عدم تأثرهم ويقرأون دون أن يطرف لهم جفن ، بل ودون أن يتنفسوا ، فيما المركبة تغوص في الأجواء المضطربة . وقد عرفت واحداً من هؤلاء ، كان جاري في المقعد ، في ليلة طويلة من نيويورك إلى روما ، عبر أجواء القطب الشمالي الوعرة ، ولم يقطع قراءته في الجريمة والعقاب ولو لتناول العشاء كان يقرأ الرواية سطراً سطراً وصفحة صفحة ، ولكنه قال وهو يتنهد ، في موعد تناول الفطور : «يبدو لي أنه كتاب مهم» . ومع ذلك ، يؤكد الكاتب الاوروغوايي كارلوس مارتينيث مورينو انه لا يوجد ما هو أفضل من الكتاب للطيران . فقد طار خلال عشرين سنة وهو يحمل معه دوماً النسخة شبه المهترئة ذاتها من دام بوفاري ، متظاهراً بقراءتها رغم انه صار يعرفها عن ظهر قلب تقريباً ، لقناعته في أنها تدبير مؤكد ضد الموت .

أما أنا فلم أفكر يوماً بوسيلة اكثر فعالية من الموسيقى ، ولكن ليس تلك التي تُسمع من أجهزة الطائرة ، وانما التي أحملها في أشرطة تسجيل وسماعة . الحقيقة أن موسيقى الطائرة تؤدي إلى مفعول معاكس . ولقد كنت أتساءل مذهولاً على الدوام : من هم الذين يختارون البرامج الموسيقية للرحلات الجوية ، لأني لا

أستطيع أن أتصور من هو أقل إلماماً منهم بالخصائص العلاجية للموسيقى. فهم يفضلون، وبمعايير شديدة التبسيط، الموسيقى الاوركسترية الكبرى ذات العلاقة بالسماء وبالفضاء اللامتناهي وبالظواهر الأرضية. «اوركسترات سميكة الجلود»، كما كان يطلق براهمز على أعمال بروكنير. أما أنا فلدي موسيقاي الشخصية للطيران، ولن يكون لتعدادها من نهاية. لدي برامجي الذاتية، حسب خط الرحلة ومدتها، وحسبما إذا كان الوقت نهاراً أم ليلاً، وكذلك حسب الطائرة التي أطير فيها. فمن مدريد إلى بويرتوريكو، وهي رحلة مألوفة للأميركيين اللاتينيين، يكون البرنامج دقيقاً ومحكماً: سيمفونيات بيتهوفن التسع. وكنت أظن ـ كما قلت من قبل ـ انه لا وجود لتدبير أكثر فعالية من الموسيقى للطيران، حتى هذا الأسبوع من تعاستي، حين كتب إليّ قارىء من اليكانتي قائلاً انه اكتشف أسلوباً آخر أفضل: ممارسة الحب لمرات عديدة، قدر الإمكان، أثناء الطيران.

الحب في الجو

الرحلات ـ مثل السُلطة ـ مهيجة للشهوات. ولو ان مذكرات الملاحين تقول الحقيقة كلها، وليس الحقيقة فقط، لكانت نصوصاً مثالية في الأدب المحظور. لهذا السبب بالذات يستحيل العثور فوق سطح بواخر الركاب على ركن واحد غير مضاء في الليل، والمجربون في الرحلات السياحية البحرية، وخصوصاً في الكاريبي، ينصحون المستجدين باصطحاب مفتاح انكليزي معهم لتكسير المصابيح.

لقد كانت القطارات الأوروبية القديمة، ولسنوات طويلة، عبارة عن فنادق للمتعة على عجلات.

وقطار الشرق السريع، فضلاً عن كونه مسرحاً لجرائم دون حل ومخبراً للجواسيس، كان فردوساً ليلياً حبلت في مقصوراته اللامحدودة أكثر من ثلاثة رؤوس متوجة. وفي مترو مدينة مكسيكو، كان لا بد للسبب ذاته، وفي وضح النهار، من تخصيص عربات منفصلة للرجال وللنساء، ليس في ساعة انخفاض الإزدحام، بل على العكس تماماً: في أشد ساعات الازدحام.

أما الطائرات، فقد اعتبرت لسنوات طويلة مكاناً يحظر الحب فيه. بل ان حزاماً في المقعد كان يبدو لنا وكأنه بديل مهذب لحزام العفة. وربما كرد فعل على هذا العقاب شاعت الخرافة العالمية عن المضيفات سهلات المنال، اللواتي نسبت اليهن مخيلتنا المراهقة اتقان جميع أنواع الممارسات الشبقة. وحدث منذ سنوات

طويلة أن اشيع في بارانكيا أن بيتاً للدعارة سيفتتح في الحي الراقي من المدينة لتبيع فيه متعهن أجمل خادمات الجو ممن يعملن في شركات الطيران العالمية. وقد ذهبنا جميعنا في تلك الليلة بالذات: ابتداء من السيد المحافظ وبطانته كلها وحتى أدنى الصحفيين أجراً. ووجدنا هناك بالفعل سرباً من الفتيات الفاتنات بأزياء تحمل اشارات جميع أجواء العالم: أسوجيات شركة «ساس» وألمانيات «لوفتهانزا» وأمازونيات «بان اميركان» الكونيات. وكانت تراودنا رغبة جامحة في أن تكون تلك الأكذوبة الكبيرة صحيحة وحقيقية، حتى ان معظمنا تظاهر بانه لم ينتبه إلى انهن جميعاً خلاسيات مثل خلاسياتنا، وانهن يتكلمن القشتالية دون لكنة، وبلهجة تشبه إلى حد يعجز عنه الوصف اللهجة المتداولة في مصنع الأحلام الذي تملكه بيلار تيرنيرا.

المرة الأولى التي سمعت فيها حديثاً جدياً عن امكانية ممارسة الحب في طائرة كانت في بارانكيا، وكنت أشرب الروم الأبيض مع قشور الليمون برفقة طيار ألماني مجرب، تقاعد من عمله عندما اخترعوا المحرك النفاث، لأنه لم يكن قادراً على أن يتصور كيف يمكن للطائرات أن تطير دون مراوح. وكان هو من أخبرني انه في طائرات كونستيليشن الفخمة التابعة للشركة توجد أسرة قابلة للطي، كتلك التي في مقصورات القطارات، وانه لم يكن هناك من يسأل عمّا يفعله المسافرون فيها ممن يستأجرونها للنوم. والحقيقة أن من صمم تلك الأسرة هو «هوارد هوغس» مخترع طائرة الكونستيليشن، وذلك لاستخدامه الشخصي مع نجمات السينما اللواتي كان يصممهن أيضاً. وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة قبل أن يجرؤ فيلم سينمائي على اظهار ممارسة جنسية على متن طائرة. وقد شوهد ذلك لأول مرة في فيلم ايمانويل. وكان حباً شاقاً جداً ومثبطاً للعزيمة، وبدا أشبه بتجربة لتأكيد استحالة ممارسة الحب أثناء الطيران.

أما في الوقت الراهن، فيراه المسافرون في طائرات الجيت ـ سيت أمراً عادياً، ويمارسونه بكثرة وتلقائية كما في الحياة الواقعية. ففي الولايات المتحدة توجد

جمعيـة مدنيـة تدعى «ميل هاي كلوب» Mile High Club ، يُقبل في عصويتها جميع من أثبـتـوا أنهـم مارسـو الحـب على ارتـفـاع يتـجـاوز الميـل. وأعضـاء الجمعية كثير ون؛ وجميعهم يتفقون على ان الصعوبة الوحيدة في المسألـة، كما في مسـائـل اخرى كثيرة، هي البداية. وهناك أيضاً رحلة جوية ليلية من لوس انجلوس إلى ميامي أو من لوس انجلوس إلى نيويورك، واسمها يكشف تماماً عن طبيعتهـا: «رد آيـز اكسـبر يس» Red Eyes Express ، أي اكسـبر يس العيون الحمراء. ومدة الرحلة سبع ساعات، لكن الشيء الوحيد الذي لا يسمح به أحـد هو النـوم، وذلـك لكي يصـل المسـافـرون إلى وجهتهم وعيونهم تتقد من قصف الليل.

الفـرق بين الـرد آيـز اكسـبر يس والـرحلات التجارية العادية ـ إضافة إلى أسعار البطاقات، المخفضة جداً ـ هو انه لا وجود في الأولى لأي نوع من الرقابة. فلا سلطـة فيهـا سوى سلطـة الطيـارين الذين يقضون الرحلة في مقصورة القيادة المغلقـة، كي لا يصلهم رذاذ اغـراء ابتكـارهم. ويحمـل المسـافـرون طعـامهم وشـرابهم، ومخـدراتهم ومـوسيقـاهم الشخصيـة، ويكـون كل منهم سيـداً مطلق السيادة على جسده، أي أن كل واحد منهم يمضي في رحلة اخرى ضمن الرحلة.

لا أحـد يسأل أحـداً هنـاك عمـن يكـون، ولا من أين أتى. ففي تلك الرحلات البابلية مطفأة الأنوار، يكون الجنس هو أبسط ما يحدث.

هنـاك خطأ شائـع حين يدور الحـديث حول هذه الأمـور، وهـو التفكـير بدورات المياه في الطـائـرة. بل ويـوجد كاتالوج مزود بصور توضيحية، يشير إلى مختلف الأوضـاع الاكـروباتية لممارسة الحب في مراحيض طائرات شركات الخطوط الجـوية الكـبرى. وتشـير الصور إلى نقاط الاستناد حسب السن والاذواق، وقد بلغت حوالي ١٦٢ وضعية على الطريقة الغربية.

وقبضـة الأمـان وحـدهـا، التي يمسـك بها المرء كي لا يقع أثناء استخدامه

التقليـدي للمرحاض، تفيد في أربعة وسبعين أمراً آخر، حسب ذلك الكاتالوج.

هذا يعني أن لمرحاض الطائرات محاسن ديمغرافية تفوق محاسن السيارات، رغم أن الاحصـائيـات تشير إلى ازدياد يومي في عدد الأطفال الأذكياء وبلا كسور الذين يُحبل بهم في السيارات، والتي تكون سائرة في معظم الأحيان.

ويـرى المجـربـون مع ذلك أن دورات المياه في الطائرات هي أماكن شائعة الاستخـدام ومعـروفـة لممارسـة الحب مثلما هي الأسـرة المخصصـة لسينـاتـورات الجمهـوريـة. أما المكان المثالي فهو مقاعد الطائرة، بعد رفع المسند الفاصل بينها. والبـرهـان القـاطـع على ذلك قدمه ارنولد شوارزنيغر، السيد يونيفرس المتوحد - والـذي قيـل عنـه يومـاً إنـه من الفـريق الآخـر -، فقد سافر مع خطيبته قبل ثلاث سنوات في رحلة ليلية من لوس انجلوس إلى نيويورك، ولم تستطع الخطيبة كما يبدو ان تغفـو ولـو للحظـة واحـدة. والمضيفـة التي كان عليهـا أن تقوم بخدمتهما قالت للصحافة فيما بعد: «الشيء الوحيد الذي رأيته منهما طوال الرحلة هو أقدامهما».

وهكذا فقد يكون على حق ذلك القارىء الذي كتب إلي من اليكانتي قائلاً إن الحب هو العـلاج الأكثـر نجـاعـة للتخلص من الخـوف في الطـائـرة. وفعلاً، فالعلماء يقولون إنه لا وجود لمهدىء أفضل منه للجسد. ثم إذا ما فكر أحدنا بالأمر جيـداً، فلن يجد هنـاك ما يثبت تحريم محاولتـه في الطائرات. فالتدخين ممنوع أثناء الإقـلاع والهبـوط، وفي بعض اجـزاء الطـائرة، وخصوصاً في دورات المياه، لذلك يوجد اعلان يضيء وينطفىء ليذكرنا بالأمر. وهذا يسمح لنا بالتفكير انه لو كانت ممارسة الحب ممنوعة لوضعوا اعلاناً مماثلاً. بل واكثر من ذلك: ففي مخاوفي الجامحة فوق جميع المحيطات الليلية، كان لدي من الصبر ما يكفي لأقرأ، ولعدة مرات، نص عقد الطيران المطبوع على التذاكر بخط ميكروسكوبي، ولم أجد فيه أي بند يحظر ممارسة أية وظيفة عضوية طبيعية. لهذا، وإذا كنت لم تفعل ذلك حتى الآن، فلأنك أسأت الفهم.

تقدم إذن، وسفراً ميموناً.

طائرة الحسناء النائمة

كانت حسناء نحيلة، ذات بشرة ناعمة لها لون الخبز وعينين مثل حبتي لوز خضراوين، شعرها ناعم وأسود وطويل يصل حتى خصرها، وبها نفحة من عراقة شرقية يمكن لها أن تكون من بوليفيا أو من الفيليبين على حد سواء.

كانت ملابسها تنم عن ذوق رصين: سترة من الكتان الأبيض، وبلوزة من الحرير مزينة بأزهار باهتة جداً. وبنطال من كتان خام وحذاء مخطط طولانيا وله لون ازهار البوغامبيليا.

حين رأيتها تقف في الصف للصعود إلى طائرة نيويورك في مطار شارل ديغول في باريس، فكرت: «هذه هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي». أفسحت لها الطريق. وحين وصلت إلى المقعد الذي خصصوه لي على بطاقة الصعود إلى الطائرة، وجدتها جالسة على المقعد المجاور. واستطعت أن أسائل نفسي وأنا مبهور الأنفاس: من هو عاثر الحظ منا في تلك المصادفة الرهيبة.

لقد استقرت في مكانها وكأنها ستقيم هناك لسنوات طويلة، فوضعت كل شيء في مكانه بدقة، إلى أن أصبح مجالها الخاص مرتباً ترتيباً مثالياً، حيث كل شيء في متناول يدها. وفيما هي تفعل ذلك، قدم لنا ضابط الخدمة شمبانيا الترحيب. لم تقبل تناولها، وحاولت أن تشرح شيئاً بلغة فرنسية أولية. حينئذ تحدث اليها الضابط بالانكليزية، فشكرته بابتسامة فاصلة، وطلبت منه كأس ماء، راجية، ألا يوقظوها لأي سبب طوال الرحلة. بعد ذلك فتحت فوق ركبتيها

حقيبـة لوازم كبـيرة ومربعة، ذات زوايا من البرونز مثل صناديق السفر التي كانت تستخـدمهـا الجـدات، وتناولت قرصين ذهبيين أخرجتها من انبوبة تحوي أقراصاً اخـرى مختلفـة الألـوان. كانت تفعـل كل شيء بمنهجية ورصانه، وكأنه لا وجود لأمر غير محسوب بالنسبة لها منذ يوم ميلادها.

أخـيراً، أسنـدت الـوسـادة الصغـيرة على زاويـة النـافـذة وغطت نفسها بالبطانية حتى وسطها دون أن تنزع حذاءها واضطجعت في المقعد على جانبها، في وضـع شبـه جنيني، وأغفت دون أن تصحـو لحظـة واحدة، ودون زفرة واحدة، ودون تبدل واحد ضئيل في وضعيتها طوال الساعات السبع الرهيبة والاثنتي عشرة دقيقة الزائدة التي دامتها الرحلة إلى نيويورك.

لقـد كنت على قنـاعـة دوماً من أنه لا وجود في الطبيعة لما هو أجمل من امرأة جميلة. ولذا كان يستحيل عليّ الإفلات ولو للحظة واحدة من سحر تلك المخلوقة الفـاتنـة النـائمـة إلى جانبي. كان نومها مستقراً وهادئاً، حتى أن القلق راودني في احدى اللحظات بان القرصين اللذين تناولتهما لم يكونا للنوم وإنما للموت. تأملتها عدة مرات سنتمتراً بعد سنتمتر، وعلامة الحياة الوحيدة التي استطعت ملاحظتها هي ظلال الأحـلام التي كانت تمر فوق جبهتهـا مثلما تمر الغيـوم فوق المـاء. كانت تعلق في عنقهـا سلسلة ناعمـة تكـاد تكون غير مرئية فوق بشرتها الذهبية، وكانت اذنـاهـا مكتملتـان وبـلا ثقـوب للأقراط، وكان في يدها اليسر خاتم ناعم. ولأني رأيت انهـا لم تتجـاوز الثـانيـة والعشـرين من العمر، فقد واسيت نفسـي بأنه ليس خاتم خطـوبـة عابـرة وسعيـدة. لم تكن تحمل رائحة أي عطر؛ لكن بشرتها كانت تعبق برائحة خفيفة لا يمكن لها أن تكون إلا الرائحة الطبيعية للجمال. «أنتِ في أحـلامـك، وفي البحـر السفن»، هذا ما فكرت به وأنا على ارتفاع ٢٠٠٠٠ قدم فوق المحيـط الأطلسي، محاولاً استـذكـار سونـاتـا خيرardo دييغـو الخالدة حسب تسلسل نظمها.

«أعلمُ أنك نائمة، مستقرة، آمنة، مسيل هجران وفيّ، خط نقي، شديدة

القـرب من يديّ المكبلتـين». وكـانت حالتي الـواقعيـة مشابهة للسوناتا حتى انني استعـدت خلال نصف ساعـة كامل بنائها في ذاكرتي: «أي عبودية مرعبة أعاني، أنا المؤرق، المجنون على الجروف، فالسفن في البحر، وأنتِ في أحلامك».

مع ذلـك، وبعـد خمس ساعـات من الطـيران، كنت قد تأملت الجميلة النـائمـة كثيراً، وبجـزع شديـد دون أمل، حين أدركت فجأة أن حالتي المعنوية ليست مثل سوناتا خيراردو دييغو، وانما هي مثل عمل أدبي آخر عظيم ومعاصر، وأعني به رواية بيت **الجميلات النائمات**، للياباني ياسوناري كاواباتا.

لقـد اكتشفتُ هذه الـروايـة الرائعة عبر طريق طويل ومختلف، لكنه ينتهي على أي حال إلى جميلة الطائرة النائمة. فمنذ عدة سنوات، وفي باريس، اتصل بي الكـاتب آلان جوفـري هاتفيـاً ليقـول لي انـه يود تقـديمي إلى بعض الكتّاب اليـابـانيين الموجودين في بيته. الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عن الأدب الياباني في ذلـك الحـين، إضـافـة إلى قصـائـد الهـاي ـ كاي الكئيبة التي كانت مقررة في المـدرسـة الثـانـوية، هو بعض القصص القصيرة لجونيشير و تانيزاكي المترجمة إلى القشتالية. والحقيقة انني لم أكن أعرف شيئاً يقينياً عن الكتّاب اليابانيين سوى انهم سينتهون جميعهم، عاجلاً أو آجلاً، إلى الانتحار. لقد سمعت عن كاواباتا لأول مرة عندما منحوه جائزة نوبل سنة ١٩٦٨، وحاولت حينئذ أن أقرأ شيئاً له، لكنني نمت أثناء القراءة. وبعد نيله الجائزة بقليل نزع أحشاءه بسيف طقوسي، تماماً كما فعـل سنـة ١٩٤٦ روائي آخـر شـهير، هو اوسانو دازاي، بعد عدة محاولات فاشلة للإنتحـار. وقبـل سنتين من انتحار كاواباتا، وبعد عدة محاولات فاشلة أيضاً، قام الروائي يوكيو ميشيما، وربما هو الأكثر انتشاراً في الغرب، بتنفيذ طريقة الهاراكيري في الانتحار كاملة بعد أن ألقى خطبة وطنية في جنود الحرس الامبراطوري.

ولأن الأمر كذلك، فإن أول ما خطر لذهني عندما اتصل بي آلان جوفروي هو عبادة الكتاب اليابانيين للموت، فقلت له: «سأكون سعيداً بالحضور، ولكن شريطة ألا ينتحروا». وفعلاً، لم ينتحروا، بل اننا أمضينا معاً ليلة ساحرة، أفضل

ما تعلمته خلالها هو انهم جميعهم مجانين. فقالوا لي: «لهذا السبب نود التعرف اليك». ثم قالوا لي أخيراً بثقة انه لا تراود القراء اليابانيين أية شكوك في انني كاتب ياباني.

وفي محاولة لفهم ما عنوه بقولهم هذا، ذهبت في اليوم التالي إلى مكتبة متخصصة في باريس واشتريت كل ما هو متوفر من أعمال: شاساكو ازرو، وكينزابورو أوي، وياسوشي انوو، واكوتاغوا ريونوسوكي، وماسوجي ابوسي، واوسانو دازاي، اضافة إلى أعمال الكاتبين المشهورين كاواباتا وميشيما. ولم أقرأ شيئاً آخر طوال ما يقارب السنة، حتى أصبحت أنا نفسي على قناعة اليوم من أن هناك شيئاً مشتركاً بين الروايات اليابانية ورواياتي. شيء لا أستطيع تفسيره، ولم أدرك كنهه في حياة ذلك البلد خلال زيارتي الوحيدة لليابان، لكنه يبدو لي أكثر من جليّ.

ومع ذلك، فالرواية الوحيدة التي تمنيت لو أكون كاتبها هي بيت الجميلات النائمات لكاواباتا، وتروي قصة نزل غريب في ضواحي طوكيو، حيث يدفع المسنون البرجوازيون مبالغ طائلة ليستمتعوا بالحب الأخير بطريقة مبتكرة: فهم يقضون الليل في تأمل أجمل فتيات المدينة وهن يرقدن عاريات ومنومات في السرير ذاته. وهمْ لا يستطيعون ايقاظهن، ولا حتى ملامستهن، مع انهم لا يحاولون ذلك، لأن سعادتهم الأكثر صفاء في تلك المتعة الشيخوخية هي في أنهم يستطيعون أن يحلموا بجوارهن.

لقد عشت هذه التجربة وأنا إلى جوار الحسناء النائمة في طائرة نيويورك، لكن التجربة لم تبهجني. بل على العكس من ذلك: فالشيء الوحيد الذي كنت اتمنى حدوثه خلال الساعة الأخيرة من الرحلة هو أن يقوم ضابط الخدمة بإيقاظها كي أستعيد حريتي، وربما شبابي. لكن ذلك لم يحدث، فقد استيقظت وحدها حين حطت الطائرة على الأرض، فزينت وجهها ونهضت دون أن تنظر إلي، وكانت أول من غادر الطائرة وضاعت إلى الأبد بين الجموع. واصلت أنا الرحلة

في الطائرة نفسها إلى مكسيكو، محتفظاً بأشواقي الأولى إلى جمالها وأنا جالس إلى جوار المقعد الذي ما زال دافئاً بنومها، دون أن أستطيع أن أنزع من رأسي ما قاله لي كتاب باريس المجانين عن كتبي. وقبل أن تحط الطائرة، حين قدموا لي بطاقة الهجرة، ملأتها وبي شعور من المرارة. المهنة: كاتب ياباني. السن: ٩٢ سنة.

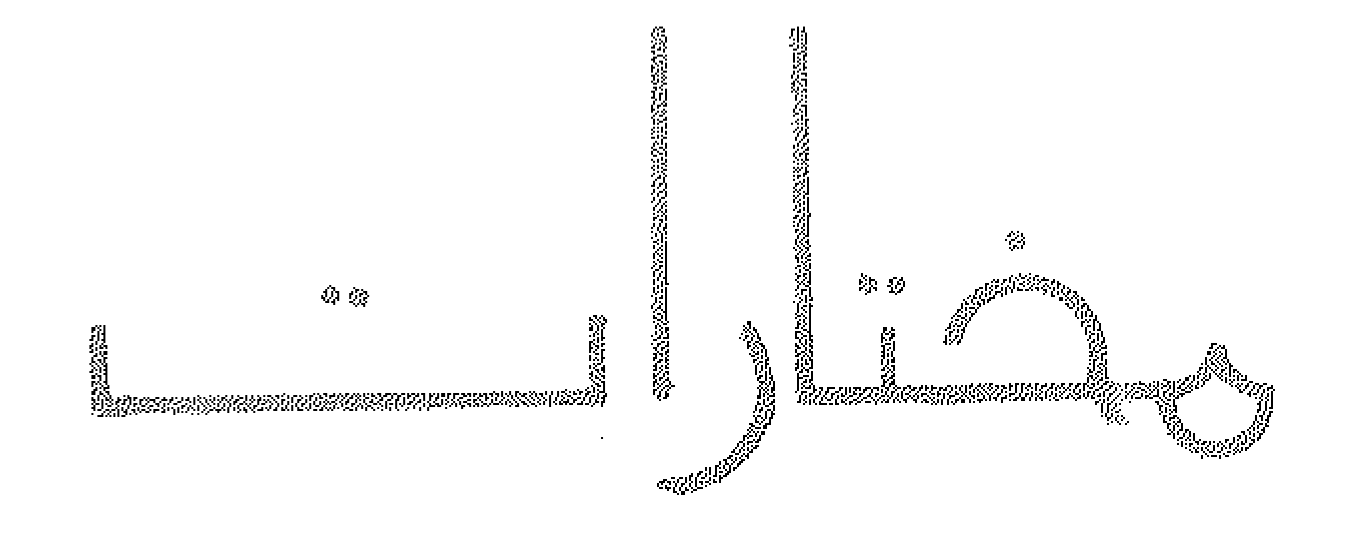
الفهرس

صدر حديثاً عن الأهالي

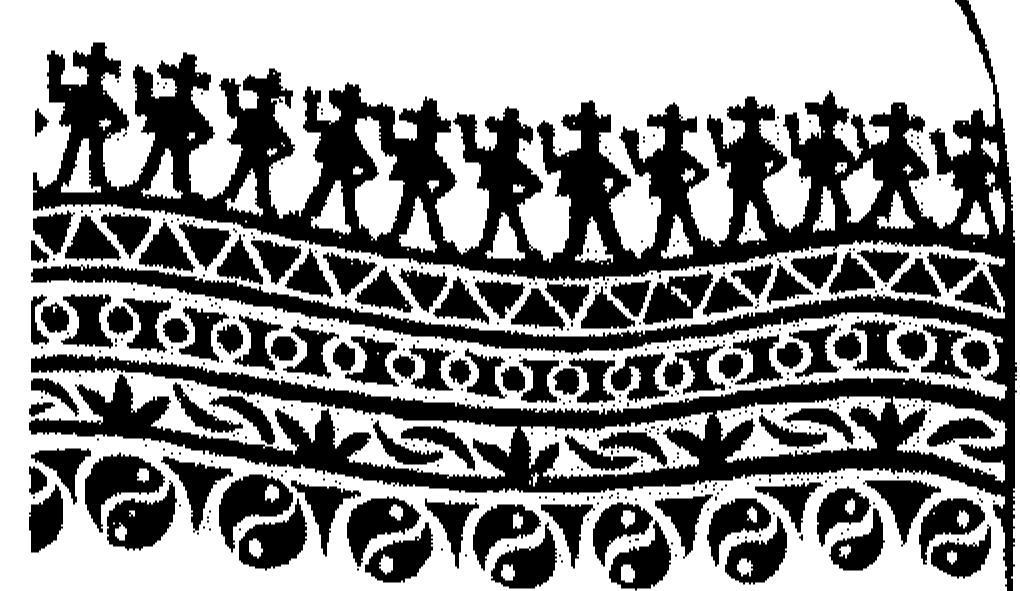
- زوبُك (رواية) — عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبد اللي
- من قاموس التراث — هادي العلوي
- الحب والظلال (رواية) — ايزابيل الليندي، ترجمة: صالح علماني
- دراسات في أدب عبد السلام العجيلي — مجموعة من الكتاب، تحرير: ابراهيم الجرادي
- الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر — فريد جحا
- أرق الليلة الفاصلة — منيف حوراني
- النفق (رواية) — ارنستو ساباتو، ترجمة: عبد السلام عقيل

يصدر قريباً عن الأهالي

- سورية الجنوبية — ترجمة: احمد عبد الكريم،
- الجغرافية السياسية والجغرافية الاستراتيجية — ترجمة: أحمد عبد الكريم
- السّواد «الخروج من البقارة» (رواية) — حسن حميد
- تطور المجتمعات الشرقية — مجموعة من الباحثين السوفييت
- سيسيولوجيا الرواية — د. عبد الرزاق عيد
- الشذوذ الجنسي — د. ناجي الجيوش
- مرايا صغيرة (شعر) — شيركو بي كه س
- تفاح الشيطان (رواية) — احمد يوسف داوود







منذ سنوات والكاتب الكولومبي الشهير غابرييل غارسيا ماركيز ينشر في عدد من الصحف الاميركية اللاتينية والاسبانية مقالاً اسبوعياً يشد اهتمام القراء بطرافته ورشاقة اسلوبه وجاذبيته، مما جعل دور النشر تجمع تلك المقالات في عدة مجلدات ـ أربع مجلدات حتى عام ١٩٨٤ ـ.

وقد اخترنا مجموعة من تلك المقالات تُظهر بوضوح ان ما يكتبه ماركيز ليس مجرد عمود في صحيفة، وانما هو نثر فني يؤكد فيه كاتبه أنه صحفي كبير قبل أن يكون روائياً كبيراً.

الناشر